الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد السادس

تتمة سورة التوبة

وَظَنُّوا وعلموا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ سخط اللَّهِ إِلَّا إلى استغفاره ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى ، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا ، وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة ، علماً منهم أن اللّه تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به. عن الحسن : بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال : يا حائطاه ، ما خلفنى إلا ظلك وانتظار ثمرك ، اذهب فأنت في سبيل اللّه. ولم يكن لآخر إلا أهله فقال : يا أهلاه ما بطأنى ولا خلفنى إلا الضنّ بك لا جرم ، واللّه لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول اللّه، فركب ولحق به. ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال ، فقال يا نفس ما خلفنى إلا حب الحياة لك واللّه لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول اللّه ، فتأبط زاده ولحق به. قال الحسن : كذلك واللّه المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها. وعن أبى ذرّ الغفاري : أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ماشياً ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما رأى سواده : كن أبا ذرّ ، فقال الناس : هو ذاك ، فقال : «رحم اللّه أبا ذرّ ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده» «1» وعن أبى خيثمة «2» أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الضحّ والريح «3» : ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح ، فمدّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب فقال : كن أبا خثيمة فكأنه. ففرح به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واستغفر له. ومنهم من بقي لم يلحق به ، منهم الثلاثة قال كعب :

(1). أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي في الدلائل ، قال : حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد اللّه بن مسعود قال «لما سار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف - فذكره مطولا»

(2). أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند. وذكره الواقدي في المغازي حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن أبى مالك عن أبيه عن جده قال سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك. فذكر القصة الطويلة وفيه وكان أبو خيثمة ويسمى عبد اللّه ابن خيثمة - السالمى رجع بعد أن سار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عشرة أيام ، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار - فذكره وأخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال حدثني عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم «أن أبا خيثمة سالم - فذكره. وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبى عن أبيه قال : تخلفت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك ، حتى مضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فدخلت حائطا - فذكر الحديث نحوه» وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل «فلما بلغ تبوك قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه : فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب. فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة.

(3). قوله «في الضح والريح» الضح الشمس. ويزهاه السراب : يرفعه اه من الصحاح. (ع)

لما قفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سلمت عليه فردّ علىّ كالمغضب بعد ما ذكرني وقال : ليت شعري ما خلف كعباً؟ فقيل له : ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه. فقال : معاذ اللّه ما أعلم إلا فضلا وإسلاماً «1» ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة ، فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع «2» : أبشر يا كعب بن مالك ، فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربى ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وتتابعت البشارة ، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين ، فقام إلىّ طلحة بن عبيد اللّه يهرول حتى صافحنى وقال : لتهنك توبة اللّه عليك ، فلن أنساها لطلحة ، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر : «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك» ثم تلا علينا الآية. وعن أبى بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال : إن تضيق على التائب الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 119 إلى 121]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ

مَعَ الصَّادِقِينَ وقرئ : من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين اللّه نية وقولا وعملا ، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم للّه ورسوله على الطاعة من قوله رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وقيل : هم الثلاثة ، أى كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم.

(1). متفق عليه من حديث عبد اللّه بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك مطولا ، وقال فيه فقال رجل من بنى سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت - الحديث» قال المخرج : الوهم فيه من المصنف. وأخرجه أحمد وفيه : فقال رجل من قومي يا رسول اللّه خلفه برداه والنظر في عطفيه» وأفاد الواقدي في المغازي : أن الذي قال ذلك عبد اللّه بن قيس.
(2). قوله «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة ، اه من الصحاح. (ع) [.....]

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، أى كونوا مع المهاجرين والأنصار ، ووافقوهم وانتظموا في جملتهم ، واصدقوا مثل صدقهم. وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك. وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه «1» : ولا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه. اقرموا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين. فهل فيها من رخصة؟

وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ أمروا بأن يصحبوه على البأساء. والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعزُ نفس عند اللّه وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت «2» فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربئوا«3» بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية ذلِكَ إشارة إلى ما دل عليه قوله : ما كان لهم أن يتخلفوا ، من وجوب مشايعته ، كأنه قيل ذلك الوجوب «ب» سبب بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ شيء من عطش ، ولا تعب. ولا مجاعة في طريق الجهاد ، ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفا يغيظهم ويضيق صدورهم وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ولا يرزءونهم شيئا بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند اللّه ، وذلك مما يوجب المشايعة. ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة ، لا الوطء بالأقدام والحوافر ، كقوله عليه السلام «4» : «آخر وطأة وطئها اللّه بوج «5»» والموطئ إمّا مصدر كالمورد ، وإمّا مكان. فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار : يغيظهم وطؤه. والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً ، وأن يكون بمعنى المنيل. ويقال : نال منه إذا رزأه ونقصه ، وهو عام في كل ما يسوؤهم وينكيهم ويلحق بهم ضرراً. وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك ،

(1). أخرجه الثعلبي من رواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن أبيه ، موقوفا وكذا أخرجه إسحاق في مسنده عن وهب ورواه البيهقي في الشعب مختصراً. ورواه الحاكم مرفوعا بما من رواية أبى الأحوص عن عبد اللّه بن مسعود رفعه «لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه».
(2). قوله «تتهافت» أى تتساقط. (ع)
(3). قوله «يربئوا» أى يرتفعوا. اه من الصحاح. (ع)
(4). أخرجه أحمد وابن سعد والطبراني والبيهقي في الأسماء من حديث يعلى بن مرة الثقفي في أثناء حديث وأخرجه إسحاق والبيهقي أيضاً والطبراني من رواية عمر بن عبد العزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم.
(5). قوله «بوج» هي بلد بالطائف اه صحاح. (ع)

وكذلك الشر. وبهذه الآية استشهد أصحاب أبى حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة ، لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكى فيهم ، ولقد أسهم النبي صلى اللّه عليه وسلم لا بنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب «1» ، وأمدّ أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه المهاجر بن أبى أمية وزياد بن أبى لبيد بعكرمة بن أبى جهل مع خمسمائة نفس ، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم «2». عند الشافعي : لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد ابن عمير : ظماء بالمدّ. يقال : ظمئ ظماءة وظماء وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولو تمرة ولو علاقة سوط وَلا كَبِيرَةً مثل ما أنفق عثمان رضى اللّه عنه في جيش العسرة وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً أى أرضاً في ذهابهم ومجيئهم ، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ، وهو في الأصل «فاعل» من ودى إذا سال. ومنه الودي. وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض.

يقولون : لا تصلّ في وادى غيرك إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ذلك من الإنفاق وقطع الوادي : ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله لِيَجْزِيَهُمُ متعلق بكتب أى أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

[سورة التوبة (9) : آية 122]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

اللام لتأكيد النفي. ومعناه أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن «3».

(1). لم أره هكذا. وقد عزاه الطيبي لأبى داود والترمذي. وفي الصحيحين عن أبى موسى بلغنا مخرج النبي صلى اللّه عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي. أنا أصغرهم - الحديث قال : فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر إلا أصحاب سفينتنا».
(2). أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا عبد اللّه بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبى حبيب «أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبى جهل ممدا للمهاجر بن أبى أمية ، وزياد بن أسد. فانتهوا إلى القوم وقد فتح عليهم. قال :
فأشركهم في الغنيمة» رواه الواقدي في المغازي : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عقبة عن الحرث بن فضيل قال : لما جاء كتاب زياد بن لبيد - فذكر نحوه.
(3). قال محمود : «معناه أن نفير الكافة لطلب العلم غير ممكن ... الخ». قال أحمد : قوله وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً على التفسير الأول : أمر لا نهى. وعلى الثاني : خبر والمراد به النهى ، لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه ، وهذا لو أمكن الجميع فعله لكان جائزاً أو واجبا ، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية. وأما في الثاني فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكنا بل واقعا ، فنهوا عن إطراح التفقه بالكلية وأمروا به أمر كفاية واللّه أعلم. قال أحمد : ولا أجد في تأخرى عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف ، فانى تفقهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء ، وأنا مع ذلك أرجو من اللّه حسن التوجه بلغنا اللّه الخير ، ووفقنا لما يرضيه ، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وفيه أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب ، لوجوب التفقه على الكافة ، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فَلَوْلا نَفَرَ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ليتكلفوا الفقاهة فيه ، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه : إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمّونها من المقاصد الركيكة ، من التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّداء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم «1» إذا لمح ببصره مدرسة لآخر ، أو شر ذمة جثوا بين يديه ، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم ، فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجل لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً. لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ إرادة أن يحذروا اللّه فيعملوا عملا صالحاً. ووجه آخر : وهو أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا بعث بعثا - بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد - استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحى والتفقه في الدين ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون ، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجّة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف. وقوله لِيَتَفَقَّهُوا الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف ، النافرة من بينهم ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

[سورة التوبة (9) : آية 123]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

يَلُونَكُمْ يقربون منكم ، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم «2» ، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. ونظيره وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وقد حارب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قومه ، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشأم. وقيل : هم قريظة والنضير وفدك

(1). قوله «و انقلاب حماليق أحدهم» الحماليق : هي ما يسوده الكحل من باطن الجفن. وقيل : ما غطته الأجفان من بياض المقلة. اه من الصحاح. (ع)

(2). قال محمود : «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم ... الخ» قال أحمد : يتعين القتال على أحد فريقين : إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه ، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا. وإما من عينهم الامام لذلك وإن بعدت بهم الدار. وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره ، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر.

وخيبر. وقيل : الروم ، لأنهم كانوا يسكنون الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى.

وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم؟ فقال : عليك بالروم. وقرئ غِلْظَةً بالحركات الثلاث ، فالغلظة كالشدّة ، والغلظة كالضغطه ، والغاظة كالسخطة ونحوه وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَلا تَهِنُوا وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدّة العداوة والعنف في القتل والأسر ، ومنه وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ. مَعَ الْمُتَّقِينَ ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوّه

[سورة التوبة (9) : الآيات 124 إلى 125]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125)

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة إِيماناً إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به.

وأيكم : مرفوع بالابتداء. وقرأ عبيد بن عمير : أيكم ، بالفتح على إضمار فعل يفسره زادَتْهُ تقديره : أيكم زادت زادته هذه إيمانا فَزادَتْهُمْ إِيماناً لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر. أو فزادتهم عملا ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ، لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ كفراً مضموما إلى كفرهم ، لأنهم كلما جدّدوا بتجديد الله الوحى كفراً ونفاقا ، ازداد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

[سورة التوبة (9) : الآيات 126 إلى 127]

أَوَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127)

قرئ : ولا يرون ، بالياء والتاء يُفْتَنُونَ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ، ولا يذكرون ، ولا يعتبرون ، ولا ينظرون في أمرهم ، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده. أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتلهم وينكل بهم ، ثم لا ينزجرون نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى «1»

(1). قال محمود : «معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى ... الخ» قال أحمد : يحتمل الدعاء كما فسره. ويحتمل الاخبار بأن الله صرف قلوبهم أى منعها من تلقى الحق بالقبول ، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبرا لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده ، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح ، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له في قوله خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء ، تعين عنده جعلها دعاء ، ثم في هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف ، كقوله وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وكقوله وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ.

وسخرية به قائلين هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون : هل يراكم من أحد. وقيل : معناه : إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

[سورة التوبة (9) : الآيات 128 إلى 129]

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشي مثلكم ، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ أى شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عنتكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به بِالْمُؤْمِنِينَ منكم ومن غيركم رَؤُفٌ رَحِيمٌ. وقرئ : من أنفسكم ، أى من أشرفكم وأفضلكم. وقيل : هي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضى اللّه عنهما. وقيل : لم يجمع اللّه اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله رَؤُفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض إليه ، فهو كافيك معرّتهم «1» ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم.

وقرئ «العظيم» بالرفع. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : العرش لا يقدر أحد قدره. وعن أبىّ ابن كعب : آخر آية نزلت لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما نزل علىّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ، ما خلا سورة براءة وقل هو اللّه أحد ، فإنهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» «2»

(1). قوله «فهو كافيك معرتهم» المعرة : الإثم ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه.

سورة يونس

(مكية ، [إلا الآيات 40 و94 و95 و96 فمدنية] وهي مائة وتسع آيات [نزلت بعد الإسراء])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يونس (10) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

الر تعديد للحروف على طريق التحدي. وتِلْكَ آياتُ الْكِتابِ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة. والْحَكِيمِ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها.

أو وصف بصفة محدثة. قال الأعشى :

وَغَرِيبَةٍ تَأْتِى المُلُوكَ حَكِيمَة قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا «1»

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه. وأَنْ أَوْحَيْنا اسم كان ، وعجباً : خبرها. وقرأ ابن مسعود : عجب ، فجعله اسماء وهو نكرة وأَنْ أَوْحَيْنا خبراً وهو معرفة ، كقوله :

يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاء «2»

---

(1). للأعشى. أى : ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها ، أو حكيم قائلها ، فهو من الاسناد للسبب ، لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة. قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذي قالها. وذا : اسم إشارة في لغة الحجاز ، واسم موصول في لغة طيئ ، وهي أقرب هنا ، فجملة «قالها» صلة الموصول. [.....]

(2) كأن سلافة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غصن من التفاح هصره اجتناء
لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر. والسلافة : أول ما يسيل من ماء العنب. ويروى «سبيئة» أى مشتراة. يقال : سبأ الخمر كنصر ، إذا اشتراها. ويروى خبيئة : أى مصونة في الخابية. وبيت رأس : قرية بالشام. وقيل : المراد بالرأس الرئيس ، وشرابها أطيب من غيره ، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة. و«عسل» اسمها مع أنه نكرة ، وكان القياس العكس فقلب للضرورة. وجوزه ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب. وقال الفارسي : إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية. وروى برفع الكلمات الثلاث ، على أن اسم كان ضمير الشأن. وقول ابن السيد : بزيادة «كان» هنا : غير مرضى ، لأن زيادة المضارع لا ترتكب إلا عند الضرورة ، ويروى بنصب العسل فقط ، فهو خبر ورفع ماء. بتقدير : وخالطها ماء. وجملة الكون صفة سلافة. وعلى أنيابها : خبر «كأن» الشدة. والمزاج : ما يمزج به غيره. والمراد بالأنياب : الثغر كله. والغض : الطري الرطب. والهصر : عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجنى ثمره. والتهصير : مبالغة فيه. وروى «الجناء» بدل «الاجتناء».
وهو بالقصر مصدر. لكن مد هنا ضرورة. وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلى ، من باب الاسناد للسبب.
وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف ، أى : هصر غصنه. ويروى : أو طعم غصن ، فلا تجوز في تهصيره. لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف. أى طعم ثمر غصن ، شبه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصته الجاني ليجتنيه ، إشارة إلى أنه مجنى الآن لم يمض عليه شيء من الزمان ، وتلويحا لتشبيه محبوبته بالأغصان في الرفة واللين والميلان.

والأجود أن تكون «كان» تامّة ، وأن أوحينا بدلا من عجب. فإن قلت : فما معنى اللام في قوله أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجباً؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس في عند الناس هذا المعنى ، والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم «1» دون عظيم من عظمائهم ، فقد كانوا يقولون : العجب أنّ اللّه لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم. وقال اللّه تعالى قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً ، لأنّ اللّه تعالى إنما يختار من استحق الاختيار ، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة. والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا

(1). قوله «من أفناء رجالهم» في الصحاح : يقال هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم ممن هو. (ع)
(2). قال محمود : «أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة ... الخ» قال أحمد : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدما، إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطردا ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة ، والله أعلم.

قلت : لما كان السعى والسبق بالقدم ، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وباعاً لأنّ صاحبها يبوع بها ، فقيل : لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل ، وأنه من السوابق العظيمة وقيل : مقام صدق إنَّ هذا إن هذا الكتاب وما جاء به محمد لَساحِرٌ ومن قرأ : لساحر ، فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً. وفي قراءة أبىّ : ما هذا إلا سحر.

[سورة يونس (10) : الآيات 3 إلى 4]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ(4)

يُدَبِّرُ يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحرى للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها ، لئلا يلقاه ما يكره آخراً. والْأَمْرَ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. فإن قلت : ما موقع هذه الجملة؟ قلت : قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض ، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير ، وبالاستواء على العرش ، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره ، وكذلك قوله ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ دليل على العزة والكبرياء ، كقوله يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وذلِكُمُ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم «1» الموصوف بما وصف به هو ربكم ، وهو الذي يستحق منكم العبادة فَاعْبُدُوهُ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع أَفَلا تَذَكَّرُونَ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً أى لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد لقوله إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وحَقًّا مصدر مؤكد لقوله وَعْدَ اللَّهِ. إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ، وهو أنّ الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم. وقرئ : أنه يبدؤ الخلق ، بمعنى لأنه.

(1). قوله «ذلك العظيم» لعله ذلكم. (ع)

أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله : أى وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته. والمعنى : إعادة الخلق بعد بدئه. وقرئ : وعد الله ، على لفظ الفعل. ويبدئ ، من أبدأ. ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقا ، أى حقّ حقا بدأ الخلق ، كقوله :

أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِياً وَلَا ذَاهِباً إلّا عَلَىَّ رَقِيبُ «1»

وقرئ : حق أنه يبدؤ الخلق ، كقولك : حق أنّ زيداً منطلق بِالْقِسْطِ بالعدل ، وهو متعلق بيجزى. والمعنى : ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم. أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً ، لأنّ الشرك ظلم. قال الله تعالى إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ والعصاة ظلام أنفسهم ، وهذا أوجه ، لمقابلة قوله بِما كانُوا يَكْفُرُونَ.

[سورة يونس (10) : آية 5]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

الياء في ضِياءً منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها. وقرئ : ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب ، بتقديم اللام على العين ، كما قيل في عاق : عقا. والضياء أقوى من النور وَقَدَّرَهُ وقدّر القمر. والمعنى وقدّر مسيره مَنازِلَ أو قدّره ذا منازل ، كقوله تعالى وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ. وَالْحِسابَ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ذلِكَ إشارة إلى المذكور أى ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ : يفصل ، بالياء.

[سورة يونس (10) : آية 6]

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

خصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

(1) أحقا عباد الله أن لست جائياً ولا ذاهبا إلا على رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
لعبد الله بن الدمينة الخثعمي. وقيل : لقيس بن الملوح. قال المرزوقي : أحقاً انتصب عند سيبويه على الظرفية ، كأنه قال : أفى الحق ذلك ، لأنهم كثيراً ما يقولون : أفى الحق كذا. وعند المبرد على المفعولية المطلقة ، أى أحق ذلك حقاً ، لأنه مصدر. وعباد الله : منادى. وروى : أن لست وارداً ولا صادراً. والمعنى واحد. والرقيب :
المانع من لقاء الحبيب. ويجوز أن يراد به ما في قوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ أى مناظر حاضر.
أو قوله تعالى إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ.

[سورة يونس (10) : الآيات 7 إلى 8]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8)

لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لا يتوقعونه أصلا ، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم ، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق. أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا من الآخرة ، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ، كقوله تعالى أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ. وَاطْمَأَنُّوا بِها وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها ، فبنوا شديداً وأمّلوا بعيداً.

[سورة يونس (10) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة «1» على سلوك السبيل المؤدّى إلى الثواب ، ولذلك جعل تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ بيانا له وتفسيرا ، لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها. ويجوز أن يريد : يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ، كقوله تعالى يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ ومنه الحديث : «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له : أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار «2»» فإن قلت : فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة ، هو إيمان مقيد ، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح.

(1). قال محمود : «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة ... الخ» قال أحمد : هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح ، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر ، وأنى له ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الايمان ، فقال يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهض عن حيز الدعوى ، فان الله لم يعلل بغير الايمان وإن جرى لغيره ذكر أولا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه. وشبهته أن الايمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين ، فيلزم أخذ

(2). أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره - فذكره» وروى ابن أبى شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة. فذكر نحوه بتمامه.

والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور. قلت : الأمر كذلك. ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمان والعمل ، كأنه قال : إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال : بإيمانهم ، أى بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح ، وهو بين واضح لا شبهة فيه دَعْواهُمْ دعاؤهم ، لأن «اللهمّ» نداء الله ومعناه : اللهمّ إنا نسبحك ، كقول القانت في دعاء القنوت : اللهمّ إياك نعبد ولك نصلى ونسجد. ويجوز أن يراد بالدعاء : العبادة وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ على معنى أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة ، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، وذلك ليس بعبادة ، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة ، كقوله تعالى وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً. وَآخِرُ دَعْواهُمْ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أَنِ يقولوا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. ومعنى وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أنّ بعضهم يحيى بعضا بالسلام. وقيل : هي تحية الملائكة إياهم ، إضافة للمصدر إلى المفعول. وقيل : تحية الله لهم. وأن هي المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه الحمد لله ، على أن الضمير للشأن ، كقوله :

أَنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ «1»

وقرئ : أنّ الحمد لله ، بالتشديد ونصب الحمد.

[سورة يونس (10) : آية 11]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ(11)

أصله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيله لهم الخير ، فوضع اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ موضع تعجيله لهم الخير «2» إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم ، والمراد أهل مكة.

(1) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول
في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل
للأعشى ميمون بن قيس. والحانوت : محل البيع والشراء. والمراد : محل بيع الطعام والشراب. يتبعني شاو :
أى غلام يشوى اللحم. مشل : أى مسرع. شلول : خفيف في العمل : شلشل : بالضم ، أى ماض في الخدمة وقضاء الحوائج : شول - ككتف - خفيف في العمل. وقيل : مخرج للحم من القدر. في فتية : أى حال كوني مع فتيان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم. أو في بياض الوجوه وتهللها. والأول أنسب بقوله : قد علموا أنه ، أى الحال والشأن. هالك وفان كل حاف : غير لابس للنعل ، ومنتعل : لابس له ، وهما كناية عن الفقير والغنى ، وإذا استويا في الغنى فلا معنى للبخل الذي لا يوجب البقاء. ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم.
(2). قال محمود : «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة ، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارنا لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة. والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً أنه اجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة. أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره : نبتم نباتا ، ولا يزيدون على ذلك ، وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فسكرته ، هل قرن المصدر في كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا - تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها ، فالفائدة - والله أعلم - في اقتران قوله نَباتاً بقوله أَنْبَتَكُمْ التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور ، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أى إذا وجد من الله الانبات وجد لهم النبات حتما فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به والله أعلم.

وقولهم : فأمطر علينا حجارة من السماء ، يعنى : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لأميتوا وأهلكوا. وقرئ : لقضى إليهم أجلهم ، على البناء للفاعل ، وهو الله عز وجل ، وتنصره قراءة عبد الله : لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت ، فكيف اتصل به قوله فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وما معناه؟

قلت : قوله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ متضمن معنى نفى التعجيل ، كأنه قيل : ولا نعجل لهم الشر ، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم فِي طُغْيانِهِمْ أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاما للحجة عليهم.

[سورةيونس (10) : آية 12]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12)

لِجَنْبِهِ في موضع الحال ، بدليل عطف الحالين عليه أى دعانا مضطجعاً أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً. فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلت معناه أنّ المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا في حالاته كلها - إن كان منبطحاً عاجز النهض «1» متخاذل النوء «2» أو كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب - إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة «3» بتمامها. ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالا وهو صاحب الفراش. ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود. ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأنّ الإنسان للجنس مَرَّ أى مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ، ونسى حال الجهد. أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه ، كأنه لا عهد له به كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا ، كأنه لم يدعنا ، فخفف وحذف ضمير الشأن قال :

(1). قوله «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً : قام. (ع)
(2). قوله «متخاذل النوء» في الصحاح : ناء ينوء نوآ إذا نهض بجهد ومشقة. (ع)
(3). قوله «و المسحة» في الصحاح : وعلى فلان مسحة من جمال. (ع)

كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقّانِ «1»

كَذلِكَ مثل ذلك التزيين زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ زين الشيطان بوسوسته أو اللّه بخذلانه وتخليته ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

[سورة يونس (10) : الآيات 13 إلى 14]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

لَمَّا ظرف لأهلكنا : والواو في وَجاءَتْهُمْ للحال ، أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات. وقوله : وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا ، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي ، يعنى : وما كانوا يؤمنون حقاً ، تأكيداً لنفى إيمانهم ، وأن اللّه قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم ، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى : أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل ، وعلم اللّه أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء يعنى الإهلاك نَجْزِي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقرئ. يجزى ، بالياء ثُمَّ جَعَلْناكُمْ الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى اللّه عليه وسلم ، أى استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا لِنَنْظُرَ أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم. وكَيْفَ في محل النصب بتعملون لا ينتظر ، لأنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله. فإن قلت : كيف جاز النظر على اللّه تعالى وفيه معنى المقابلة «2»

(1) ونحر مشرق اللون كأن ثدياه حقان
أى : ورب نحر ويروى بالرفع عطفا على شيء تقدم ، أى ولها. والنحر : موضع القلادة من الصدر. ويروى : وصدر مشرق ، أى أبيض مضيء. ويروى : وصدر مشرق النحر. ويروى : ووجه مشرق اللون ، وكأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن. وقال أبو حيان : لا حاجة للاضمار عند الإهمال. وروى : كأن ثدييه بالأعمال مع التخفيف وهو قليل. وإضافة الثديين لضمير النحر للملابسة ولضمير الوجه على تقدير مضاف ، أى : ثديا صاحبته. والحقان : تثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه ، يوضع فيه أعز الأشياء. وقيل تثنية حقة ، وحذفت منه التاء.
(2). قال محمود : «إن قلت كيف جاز النظر على اللّه تعالى ... الخ» قال أحمد : وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد للّه تعالى ، فضم إلى ذلك إنكار رؤية اللّه ، والجمع بين هذين النزغتين عقيدة طائفة من القدرية ، يقولون : إن اللّه لا يرى ولا يرى ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيرا. وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده ، واللّه الموفق. [.....]

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه.

[سورة يونس (10) : آية 15]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين ، فقالوا ائْتِ بِقُرْآنٍ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها ، فأمر بأن يجيب عن التبديل ، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان ، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل ، وأن يسقط ذكر الآلهة. وأما الإتيان بقرآن آخر ، فغير مقدور عليه للإنسان ما يَكُونُ لِي ما ينبغي لي وما يحل ، كقوله تعالى ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي من قبل نفسي. وقرئ بفتح التاء : من غير «1» أن يأمرنى بذلك ربى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ لا آتى ولا أذر شيئاً من نحو ذلك ، إلا متبعاً لوحى اللّه وأوامره ، إن نسخت آية تبعت النسخ ، وإن بدّلت آية مكان آية تبعت التبديل ، وليس إليّ تبديل ولا نسخ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالتبديل والنسخ من عند نفسي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فإن قلت : أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا؟ قلت : بلى ، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ، وكانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا. ويقولون : افترى على اللّه كذبا ، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله. مع علمهم بأنّ العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه ، كان الواحد منهم أعجز. فإن قلت : لعلهم أرادوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ، من جهة الوحى كما أتيت بالقرآن من جهته. وأراد بقوله : ما يَكُونُ لِي ما يتسهل لي وما يمكنني أن أُبدّله. قلت : يردّه قوله إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي. فإن قلت : فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت : الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير ، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل ، فإمّا أن يهلكه اللّه فينجو منه ، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على اللّه.

(1). قوله «من غير» لعله «أى من غير». (ع)

[سورة يونس (10) : آية 16]

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16)

لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة اللّه وإحداثه أمراً عجيباً خارجا عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أُمىّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً ، يبهر كل كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان وما يكون ، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا اللّه ، وقد بلغ بين ظهرانيكم «1» أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به وَلا أَدْراكُمْ بِهِ ولا أعلمكم به على لساني. وقرأ الحسن : ولا أدراتكم به ، على لغة من يقول : أعطاته وأرضاته ، في معنى أعطيته وأرضيته. وتعضده قراءة ابن عباس : ولا أنذرتكم به. ورواه الفراء : ولا أدرأتكم به ، وبالهمز. وفيه وجهان ، أحدهما : أن تقلب الألف همزة ، كما قيل : لبأت بالحج. ورثأت الميت وحلأت «2» السويق ، وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد. ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة. والثاني : أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته دارئا. والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال وتكذبونني. وعن ابن كثير : ولأدراكم به ، بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه : لو شاء اللّه ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى ، ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده ، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلا دون سائر الناس فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً وقرئ عُمُراً بالسكون. يعنى : فقد أقمت فيما بينكم يافعا وكهلا ، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه أَفَلا تَعْقِلُونَ فتعلموا أنه ليس إلا من اللّه لا من مثلي. وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه.

[سورة يونس (10) : آية 17]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

(1). قوله «ظهرانيكم» في الصحاح : ظهرانيهم - بفتح النون. (ع)
(2). قوله «و حلأت» أى جعلته حلوا. (ع)

مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً يحتمل أن يريد افتراء المشركين على اللّه في قولهم : إنه ذو شريك وذو ولد ، وأن يكون تفاديا مما أضافوه إليه من الافتراء.

[سورة يونس (10) : آية 18]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضر. وقيل : إن عبدوها لم تنفعهم ، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم ، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة وَكانوا يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ وعن النضر بن الحرث : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم للّه ، وإذا لم يكن معلوما له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات ، لم يكن شيأ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه. فإن قلت : كيف أنبأوا اللّه بذلك؟ قلت : هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأنّ الذي أنبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه. وقرئ : أتنبئون ، بالتخفيف. وقوله فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ تأكيد لنفيه ، لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم يُشْرِكُونَ قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية ، أى عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

[سورة يونس (10) : الآيات 19 إلى 20]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم ، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل : بعد الطوفان حين لم يذر اللّه من الكافرين ديارا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عاجلا فيما اختلفوا فيه ، ولميز المحق من المبطل ، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب. وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات ، وجعلوا نزولها كلا نزول ، وكأنه لم ينزل عليه آية قط ، حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغىّ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به ، يعنى أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لما يفعل اللّه بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

[سورة يونس (10) : آية 21]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21)

سلط اللّه القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم بالحيا ، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات اللّه ويعادون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويكيدونه ، و«إذا» الأولى للشرط ، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة ، والمكر : إخفاء الكيد وطيه ، من الجارية الممكورة المطوية الخلق. ومعنى مَسَّتْهُمْ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. فإن قلت : ما وصفهم بسرعة المكر ، فكيف صح قوله أَسْرَعُ مَكْراً؟ قلت : بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة ، كأنه قال : وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم ، وسارعوا إليه قبل

[سورة يونس (10) : الآيات 22 إلى 23]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

(1). أخرجه إسحاق والطبري : والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم اليمنى عن أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرون ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال : ونحن سمعناه من أبى هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا «قال الله تعالى : ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين ، يقولون : الكوكب وبالكوكب مطرنا».

قرأ زيد بن ثابت : ينشركم. ومثله قوله فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ.

فإن قلت : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر»، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلت : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيزها ، كأنه قيل : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك «2» والدعاء بالإنجاء. فإن قلت : ما جواب «إذا»؟ قلت : جاءتها. فإن قلت : فدعوا؟ قلت : بدل من ظنوا ، لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به. فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قلت : المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح. فإن قلت : ما وجه قراءة أمّ الدرداء : في الفلكي ، بزيادة ياء النسب؟ قلت : قيل هما زائدتان كما في الخارجي والأحمرى. ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجرى الفلك إلا فيه.

(1). قال محمود : «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية ... الخ» قال أحمد : وهذه أيضا من نكتة التي لا يكتنه حسنها ، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها ، وذلك عند قوله تعالى وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وقد استدل الزمخشري بها لأبى حنيفة في أن الصغير يبتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه ، خلافا لمالك ، فانه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشري : ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء ، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيا به. واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجعول غاية هو حمله ما في حيز «حتى» من البلوغ مقرونا بإيناس الرشد ، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء ، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء ، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد ، فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء. ويوضح ذلك هذه الآية ، فانه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها ، مضافا إلى ما ذكر معه. ونحن نعلم أن كونهم في الفلك - وذلك أحد ما جعل غاية - متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعا ، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك والله أعلم. وإنما بسطت القول هاهنا لفواته ثم ، فجدد بما مضى عهدا.
(2). قوله «و الظن للهلاك» عبارة النسفي : بالهلاك. (ع)

والضمير في جَرَيْنَ للفلك ، لأنه جمع فلك كالأسد ، في فعل أخى فعل «1». وفي قراءة أمّ الدرداء : للفلك ، أيضاً ، لأنّ الفلكي يدلّ عليه جاءَتْها جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها.

وقيل : الضمير للفلك مِنْ كُلِّ مَكانٍ من جميع أمكنة الموج أُحِيطَ بِهِمْ أى أهلكوا جعل إحاطة العدوّ بالحي مثلا في الهلاك مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من غير إشراك به ، لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه لَئِنْ أَنْجَيْتَنا على إرادة القول. أو لأن دَعَوُا من جملة القول يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك ، ممعنين فيه ، من قولك : بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد. فإن قلت : فما معنى قوله بِغَيْرِ الْحَقِّ والبغي لا يكون بحق؟ قلت : بلى ، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم «2» كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة. قرئ : متاع الحياة الدنيا ، بالنصب. فإن قلت : ما الفرق بين القراءتين؟

(1). قوله «كالأسد في فعل» أى كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحتين ، كأسد في أسد ، جاز مجيء «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك ، وذلك لأن «فعلا» بفتحتين و«فعلا» بالضم أخوان ، لأنهما يشتركان في الشيء الواحد ، كالعرب والعرب والعجم والعجم ، والرهب والرهب. فما جاز في أحدهما لا يمنع في الآخر ، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح ، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم ، لأنهما أخوات. كذا في الصحاح ، فتأمله. (ع)
(2). متفق على معناه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما.
(3). أخرجه ابن المبارك في الزهد : أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري : قال «بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : لا تمكر ولا تعن ماكرا ، فان اللّه تعالى يقول وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ولا تبغ ولا تعن باغيا ، فان اللّه تعالى يقول إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ «و لا تنكث ولا تعن ناكثا» فان اللّه تعالى يقول فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وفي مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبى بكرة مرفوعا «لا تبغ ولا تعن باغيا فان اللّه تعالى يقول إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ.
(4). أخرجه إسحاق في مسنده عن جرير عن برد بن يسار عن مكحول رفعه «أعجل الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة ، تدع الديار بلاقع» ولأبى يعلى من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته «أسرع الخير ثوابا صلة الرحم. وأسرع الشر عقوبة البغي».

وروى : «ثنتان يعجلهما اللّه تعالى في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين» «1» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : لو بغى جبل على جبل لدك الباغي «2». وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه :

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْسَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْماً عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ «3»

وعن محمد بن كعب : ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغي والنكث والمكر. قال اللّه تعالى :

إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ.

[سورة يونس (10) : آية 24]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

هذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف ونكائف ، وزين الأرض بخضرته ورفيفه «4» فَاخْتَلَطَ بِهِ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ كلام فصيح : جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس ، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون ، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين. وأصل ازَّيَّنَتْ تزينت ، فأدغم.

(1). أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني من حديث عبد اللّه بن أبى بكرة عن أبيه. والبخاري في الأدب المفرد من رواية بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده رفعه «كل الذنوب يؤخر اللّه منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين ، فانه يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت».
(2). أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبى يحيى القتات سمعت مجاهدا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما موقوفا. ورواه ابن المبارك في الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسلا. ورواه البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس. ورواه ابن مردويه عن أنس رضى اللّه عنه أخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة أحمد بن الفضل. وقال : إنه كان يضع الحديث.
(3). كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بغى أخيه عليه ، وكرر لفظ البغي تنفيرا عنه ، وشبهه بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه في العاقبة وربما هلك. وربع يربع ، إذا لم يتجاوز قدر نفسه. فاربع : أى الزم قدرك واعدل في فعلك. والفعال - بالفتح - : غالب في

(4). قوله «و رفيفه» أى يرفقه وتلألؤه. وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه ، كذا في الصحاح. (ع) [.....]

وبالأصل قرأ عبد اللّه. وقرئ : وأزينت ، أى أفعلت ، من غير إعلال الفعل كأغيلت أى صارت ذات زينة. وازيانت ، بوزن ابياضت قادِرُونَ عَلَيْها متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها ، رافعون لغلتها أَتاها أَمْرُنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم فَجَعَلْناها فجعلنا زرعها حَصِيداً شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله كَأَنْ لَمْ تَغْنَ كأن لم يغن زرعها ، أى لم ينبت «1» على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه ، وإلا لم يستقم المعنى. وقرأ الحسن : كأن لم يغن ، بالباء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف ، الذي هو الزرع. وعن مروان أنه قرأ على المنبر : كأن لم تتغن بالأمس ، من قول الأعشى :
طَوِيلُ الثَّوَاءِ طَوِيلُ التَّغَنِّى «2»

والأمس مثل في الوقت القريب «كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً.

[سورة يونس (10) : آية 25]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

دارِ السَّلامِ الجنة ، أضافها إلى اسمه تعظيما لها. وقيل السلام السلامة ، لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشوّ السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً وَيَهْدِي ويوفق مَنْ يَشاءُ وهم الذين علم أنّ اللطف يجدى عليهم ، لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه : يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ، ولا يدخلها إلا المهديون.

(1). قوله «أى لم ينبت» لعله لم يثبت. وفي الصحاح : غنى بالمكان أى أقام ، وغنى أى عاش. (ع)
(2) وكنت امرأ زمنا بالعراق طويل الثواء طويل التغن
فأثبت قيسا ولم آته على نأيه ساد أهل اليمن
فجئتك مرتاد ما أخبروا ولولا الذي خبروا لم ترن
للأعشى ، يستمنح قيس بن معديكرب ويقول : وكنت رجلا طويل الثواء في العراق ، طويل التغني فيه دهراً طويلا ، فزمنا : ظرف. ويجوز قراءته : زمنا ، كحذر : أى هرم ، والثواء : الاقامة. وغنى بالمكان يغنى ، كرضى يرضى :
أقام ومكث. وقد يقال : تغنى تغنيا كترضى ترضيا ، إذا تمكث وتلبث. فالتغنى - بالتشديد - : مصدر حذفت لامه عند الوقف وإن كان حذفها قليلا ، فأنبئت قيسا والحال أنى لم أجئه : مع أنه ناء أى بعيد عنى» أى مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض، فجملة «ساد» في محل المفعول الثاني ، ثم بعد ما قدم المدح التفت إلى خطابه بقوله : فجئتك مرتادا ومتعرفا ومتطلبا لما أخبروا به من كرمك وجودك ، وإضافة مرتاد للموصول لا تفيده التعريف ، لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظيا ، فصح وقوعه حالا ، ولولا الذي خبروني به لم تنظرني عندك ولم أجئ إليك. وروى : ولم أبله ، من بلاه يبلوه إذا اختبره. وروى خبر أهل اليمن أى أنبئته والحال أنى لو أختبره أفضل أهل اليمن ، فجئتك مختبراً لحالك.

[سورة يونس (10) : آية 26]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26)

الْحُسْنى المثوبة الحسنى وَزِيادَةٌ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل. ويدل عليه قوله تعالى وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وعن علىّ رضى اللّه عنه : الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : الحسنى : الحسنة، والزيادة : عشر أمثالها. وعن الحسن رضى اللّه عنه : عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وعن مجاهد رضى اللّه عنه : الزيادة مغفرة من اللّه ورضوان.

وعن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم. وزعمت المشبهة والمجبرة «1» أن الزيادة النظر إلى وجه اللّه تعالى «2» وجاءت بحديث مرقوع «3» «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فو اللّه ما أعطاهم اللّه شيئاً هو أحب إليهم منه» «4» وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ لا يغشاها قَتَرٌ غبرة فيها سواد وَلا ذِلَّةٌ ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكارا بما ينقذهم منه برحمته. ألا ترى إلى قوله تعالى ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ.

(1). قوله «و زعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة ، خلاف المعتزلة في ذلك. (ع)
(2). ذكر محمود في الزيادة تفاسير كثيرة ، ثم قال : وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه اللّه تعالى ... الخ ، قال أحمد : نسبة تفسير الزيادة برؤية اللّه تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة :
مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علما ، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة ، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته ، وقد جعل أهل السنة جاءوا به من عند أنفسهم ، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، حملا له على أنه جاء به من عنده ، فلأهل السنة إذاً أسوة بصاحبها ، ولقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة ، فابتلاء الحق بالباطل قديم ، واللّه الموفق. وإن في قوله تعالى على أثر ذلك وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ مصداقا لصحة هذا التفسير ، فان فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه اللّه تعالى فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين فان وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأله اللّه الكفاية. فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة ، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم ، منهم شقى وسعيد.
(3). قوله «بحديث مرقوع بالقاف ، أى مفترى ، كذا قيل. وهو في مقابلة المرفوع بالفاء ، أى المضاف إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم. (ع)
(4). قال الطيبي : قوله «مرقوع» هو عنده بالقاف أى مرقع معدى. وهو عند أهل السنة بالفاء اه. وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب. ورواه الترمذي وقال : كذا رفعه حماد بن سلمة. وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قوله. انتهى. وفي الباب عن أبى موسى مرفوعا أخرجه الطبراني في مسند الشاميين. وللطبري. وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه باسنادين ضعيفين. وعن أبى بكر الصديق أخرجه إسحاق في مسنده من رواية عامر بن سعد عنه. وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضا.

[سورة يونس (10) : آية 27]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

فإن قلت : ما وجه قوله وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وكيف يتلاءم؟ قلت : لا يخلو ، إمّا أن يكون وَالَّذِينَ كَسَبُوا معطوفاً على قوله الَّذِينَ أَحْسَنُوا كأنه قيل : والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وإمّا أن يقدّر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى : جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ، وهذا أوجه من الأوّل ، لأنّ في الأوّل عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله ، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله.

وقرئ : يرهقهم ذلة ، بالياء مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أى لا يعصمهم أحد من سخط اللّه وعذابه. ويجوز ما لهم من جهة اللّه ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين مُظْلِماً حال من اللّه. ومن قرأ قِطَعاً بالسكون من قوله بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ جعله صفة له. وتعضده قراءة أبىّ بن كعب : كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم. فإن قلت : إذا جعلت مظلماً حالا من الليل ، فما العامل فيه؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يكون أُغْشِيَتْ من قبل إن مِنَ اللَّيْلِ صفة لقوله قِطَعاً فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة ، وإما أن يكون معنى الفعل في مِنَ اللَّيْلِ.

[سورة يونس (10) : آية 28]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28)

مَكانَكُمْ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم. وأَنْتُمْ أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا وَشُرَكاؤُكُمْ عطف عليه. وقرئ وَشُرَكاؤُكُمْ على أنّ الواو بمعنى مع ، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم. والوصل «1» التي كانت بينهم في الدنيا. أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم ، كقوله تعالى ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا. وقرئ : فزايلنا بينهم ، كقولك : صاعر خدّه وصعره ، وكالمته وكلمته. ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم أن تتخذوا للّه أنداداً فأطعتموهم.

(1). قوله «أقرانهم» مفرده «قرن» بالتحريك وهو حبل يقرن به البعيران ، كما في الصحاح. وقوله «و الوصل» مفرده «وصلة» أى اتصال وذريعة ، كما في الصحاح أيضا. (ع)

[سورة يونس (10) : الآيات 29 إلى 30]

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

إِنْ كُنَّا هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، وهم الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون اللّه من أولى العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها اللّه عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم هُنالِكَ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ تختبر وتذوق ما أَسْلَفَتْ من العمل فتعرف كيف هو ، أقبيح أم حسن ، أنافع أم ضارّ ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله. ومنه قوله تعالى يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ وعن عاصم : نبلو كلَّ نفس ، بالنون ونصب كل : أى نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل ، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها : إن كان حسناً فهي سعيدة ، وإن كان سيئاً فهي شقية. والمعنى : نفعل بها فعل الخابر ، كقوله تعالى لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر. وقرئ : تتلو ، أى تتبع ما أسلفت ، لأنَّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار. أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شر مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ربهم الصادق ربوبيته ، لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة. أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم ، العدل الذي لا يظلم أحداً. وقرئ : الحق ، بالفتح على تأكيد قوله رُدُّوا إِلَى اللَّهِ كقولك هذا عبد اللّه الحق لا الباطل. أو على المدح كقولك : الحمد للّه أهل الحمد وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء للّه. أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

[سورة يونس (10) : الآيات 31 إلى 33]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أى يرزقكم منهما جميعاً ، «1» لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال ، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ومن يلي تدبير أمر العالم كله ، جاء بالعموم بعد الخصوص أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال فَذلِكُمُ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله رَبُّكُمُ الْحَقُّ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع في الضلال فَأَنَّى تُصْرَفُونَ عن الحق إلى الضلال ، وعن التوحيد إلى الشرك ، وعن السعادة إلى الشقاء كَذلِكَ مثل ذلك الحق حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أى كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، فكذلك حقت كلمة ربك عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أى تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ، وأَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الإيمان ، وعلم اللّه منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة اللّه أنهم من أهل الخذلان ، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة : العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل ، بمعنى : لأنهم لا يؤمنون.

[سورة يونس (10) : الآيات 34 إلى 35]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

(1). قال محمود : «معناه أى من يرزقكم منهما جميعا ... الخ» قال أحمد : وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة ، فمنها ما رزقه اللّه العبد وهو الحلال ، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ.

فإن قلت : كيف قيل لهم هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً رادّا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه ، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء ، وقال لنبيه صلى

ومنه قولهم : تهدى. ومعناه أن اللّه وحده هو الذي يهدى للحق ، بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم ، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع ، فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادا للّه أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير ، يهدى إلى الحق مثل هداية اللّه. ثم قال : أفمن يهدى إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع ، أم الذي لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه ، أو لا يهدى غيره إلا أن يهديه اللّه وقيل : معناه أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إِلَّا أَنْ يُهْدى إلا أن ينقل ، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله اللّه من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديهفَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أندادا للّه.

[سورة يونس (10) : آية 36]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ في إقرارهم باللّه إِلَّا ظَنًّا لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم إِنَّ الظَّنَّ في معرفة اللّه لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ وهو العلم شَيْئاً وقيل : وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند اللّه إلا الظن. والمراد بالأكثر : الجميع إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ : تفعلون ، بالتاء.

(1). قوله «أم من لا يهدى» من قولهم : هدى بنفسه. أم من لا يهدى ، كيرمى. وقوله : بفتح الهاء ... الخ : بقيت القراءة بكسرها مع التشديد ، وقد أشار إليها بقوله «أو كسرت» والقراءة كيرمى لحمزة وعلى. وبالفتح مع التشديد للمكي والشامي. وبالكسر معه لعاصم. والأصل : يهتدى. وهي قراءة عبد اللّه ، أفاده النسفي. (ع)

[سورة يونس (10) : الآيات 37 إلى 40]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ افتراء مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة ، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها ، كقوله تعالى هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وقرئ : ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ، على : ولكن هو تصديق وتفصيل. ومعنى ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى وما صحّ وما استقام ، وكان محالا أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. فإن قلت : بم اتصل قوله لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قلت : هو داخل في حيز الاستدراك. كأنه قال : ولكن كان تصديقاً وتفصيلا منتفياً عنه الريب كائنا من رب العالمين. ويجوز أن يراد : ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب في ذلك ، فيكون مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ متعلقاً بتصديق وتفصيل ، أو يكون لا رَيْبَ فِيهِ اعتراضاً ، كما تقول : زيد لا شكّ فيه كريم أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بل أيقولون اختلقه ، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم. أو إنكار لقولهم واستبعاد ، والمعنيان متقاربان قُلْ إن كان الأمر كما تزعمون فَأْتُوا أنتم على وجه الافتراء بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة. ومعنى بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أى شبيهة به في البلاغة وحسن النظم. وقرئ : بسورة مثله ، على الإضافة ، أى : بسورة كتاب مثله وَادْعُوا من دون اللّه مَنِ اسْتَطَعْتُمْ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ، يعنى : أنّ اللّه وحده هو القادر على أن يأتى بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فلا تستعينوا وحده ، ثم استعينوا بكل من دونه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه افتراء بَلْ كَذَّبُوا بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجئوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها في أوّل وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه

وقيل : هو في الذين كذبوا وهم شاكون. ويجوز أن يكون معنى وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز ، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ يصدق به في نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به ، أو يكون للاستقبال ، أى : ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ بالمعاندين ، أو المصرين.

[سورة يونس (10) : آية 41]

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

وَإِنْ كَذَّبُوكَ وإن تموا على تكذيبك «3» ويئست من إجابتهم ، فتبرأ منهم وخلقهم فقد أعذرت ، كقوله تعالى فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ وقيل : هي منسوخة بآية السيف.

[سورة يونس (10) : الآيات 42 إلى 43]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43)

(1). قال محمود : «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ... الخ» قال أحمد : وكان التكذيب قبل الاحاطة بعلمه ربما يوهم عذرا ما للمكذب ، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقاؤهم ، والله أعلم.
(2). قوله «و رازوا قواهم» أى جربوها وخبروها. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «و إن تموا على تكذيبك» أى مضوا عليه ولم يرجعوا عنه ، أفاده الصحاح. (ع)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ معناه : ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال : أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ، لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في صماخه دوىّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر. وأ تحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى - وهو فقد البصر - فقد البصيرة ، لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن «1». وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء ، يعنى : أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصمّ والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله أَفَأَنْتَ ... دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء ، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدي السمع والبصر راجحى العقل ، إلا هو وحده.

[سورة يونس (10) : آية 44]

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً أى لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب ، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين ، يعنى : أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب ، ولا يظلمهم الله به ، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببا فيه.

[سورة يونس (10) : آية 45]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ(45)

إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل في القبور ، لهول ما يرون يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا ، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم. فإن قلت : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ويَتَعارَفُونَ كيف موقعهما؟ قلت أما الأولى فحال من «هم» أى يحشرهم مشهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف ، وإما أن تكون مبينة ، لقوله : كأن لم يلبثوا إلا ساعة، لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرا قَدْ خَسِرَ على إرادة القول ، أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك ، أو هي شهادة من اللّه تعالى على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم «2»

(1). قوله «و يتظنن» أى يعمل ظنه. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح : وضع الرجل في تجارته وأوضع - على ما لم يسم فاعله - وضعا فيهما ، أى خسر. (ع) [.....]

وببيعهم الإيمان بالكفر وَما كانُوا مُهْتَدِينَ للتجارة عارفين بها ، وهو استئناف فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أخسرهم!

[سورة يونس (10) : آية 46]

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46)

فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ جواب نتوفينك ، وجواب نرينك محذوف ، كأنه قيل : وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك ، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة. فإن قلت : اللّه شهيد على ما يفعلون في الدارين ، فما معنى ثم؟ قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، كأنه قال : ثم اللّه معاقب على ما يفعلون. وقرأ ابن أبى عبلة : ثم ، بالفتح ، أى هنالك. ويجوز أن يراد : أنّ اللّه مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة ، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

[سورة يونس (10) : آية 47]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق فَإِذا جاءَ هم رَسُولُهُمْ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه قُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين النبي ومكذبيه بِالْقِسْطِ بالعدل ، فأنجى الرسول وعذب المكذبون ، كقوله وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا أو لكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، كقوله تعالى وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ.

[سورة يونس (10) : الآيات 48 إلى 49]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

مَتى هذَا الْوَعْدُ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادا له لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا من مرض أو فقر وَلا نَفْعاً من صحة أو غنى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ استثناء منقطع : أى ولكن ما شاء اللّه من ذلك كائن ، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ يعنى أن عذابكم له أجل مضروب عند اللّه ، وحدّ محدود من الزمان إِذا جاءَ ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة ، فلا تستعجلوا. وقرأ ابن سيرين : فإذا جاء آجالهم.

[سورة يونس (10) : الآيات 50 إلى 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

بَياتاً نصب على الظرف ، بمعنى. وقت بيات. فإن قلت : هلا قيل ليلا أو نهاراً؟ قلت : لأنه أريد : إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ، كما يبيت العدو المباغت. والبيات بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم ، وكذلك قوله نَهاراً معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب. ونحوه بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ ، ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ الضمير في مِنْهُ للعذاب. والمعنى : أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار ، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. ويجوز أن يكون معناه التعجب ، كأنه قيل: أى شيء هول شديد «1» يستعجلون منه ، ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه. وقيل : الضمير في مِنْهُ للّه تعالى. فإن قلت : بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟ قلت : تعلق ب أرأيتم ، لأنّ المعنى : أخبرونى ما ذا يستعجل منه المجرمون ، وجواب الشرط محذوف وهو : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ فيه. فإن قلت : فهلا قيل : ما ذا تستعجلون منه «2».

قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ ، فضلا أن يستعجله. ويجوز أن يكون ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ جوابا للشرط ، كقولك : إن أتيتك ما ذا تطعمني؟ ثم تتعلق الجملة ب أرأيتم ، وأن يكون أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ جواب الشرط ، وما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ اعتراضاً. والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ودخول حرف الاستفهام على ثم ، كدخوله على الواو والفاء في قوله أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى .

آلْآنَ على إرادة القول ، أى : قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ يعنى : وقد كنتم به تكذبون ، لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب

(1). قوله «أى شيء هول شديد» لعله أى شيء أتى هو لا شديدا. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت هلا قيل ما ذا تستعجلون منه ... الخ»؟ قال أحمد : وفي هذا النوع البليغ نكتتان ، إحداهما : وضع الظاهر مكان المضمر. والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر ، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ، والله أعلم.

والإنكار. وقرئ : آلان ، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عطف على «قيل» المضمر قبل آلآن.

[سورة يونس (10) : آية 53]

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ويستخبرونك فيقولون أَحَقٌّ هُوَ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء. وقرأ الأعمش : آلحق هو ، وهو أدخل في الاستهزاء ، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أنّ اللام للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق ، والضمير للعذاب الموعود. وإي بمعنى «نعم» في القسم خاصة ، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق : إيَو ، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين العذاب ، وهو لا حق بهم لا محالة.

[سورة يونس (10) : الآيات 54 إلى 56]

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

ظَلَمَتْ صفة لنفس على : ولو أنّ لكل نفس ظالمة ما فِي الْأَرْضِ أى ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها لَافْتَدَتْ بِهِ لجعلته فدية لها. يقال : فداه فافتدى. ويقال : افتداه أيضاً بمعنى فداه

(1). قوله «لا ينبس بكلمة» أى لا يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

المثيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق. وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون.

[سورة يونس (10) : الآيات 57 إلى 58]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد وَهو شِفاءٌ أى دواء لِما فِي صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق وَرَحْمَةٌ لمن آمن به منكم. أصل الكلام : بفضل اللّه وبرحمته فليفرحوا ، فبذلك فليفرحوا.

والتكرير للتأكيد والتقرير ، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا ، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه ، والفاء داخلة لمعنى الشرط ، كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. ويجوز أن يراد : بفضل اللّه وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز أن يراد : قد جاءتكم موعظة بفضل اللّه وبرحمته ، فبذلك : فبمجيئها فليفرحوا. وقرئ فليفرحوا ، بالتاء وهو الأصل والقياس ، وهي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما روى. وعنه «1» «لتأخذوا مضاجعكم «2»» قالها في بعض الغزوات.

وفي قراءة أبىّ : فافرحوا هُوَ راجع إلى ذلك. وقرئ : مما تجمعون ، بالياء والتاء. وعن أبىّ بن كعب أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم تلا قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فقال «بكتاب اللّه والإسلام «3»» وقيل «فضله» الإسلام «و رحمته» ما وعد عليه.

[سورة يونس (10) : الآيات 59 إلى 60]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60)

(1). هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال «أبطأ عنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع ثم خرج فأقيمت الصلاة فصلى بنا صلاة تجوزها فلما سلم قال : فما أنتم على مصافكم - الحديث».
(2). قوله «لتأخذوا مضاجعكم» لعل الرواية «مصافكم». (ع)
(3). أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ فذكره. وعن أبى سعيد كذلك أخرجه الطبري، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «قل بفضل اللّه وبرحمته» قال : بفضل اللّه القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة».

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى. وما أَنْزَلَ اللَّهُ «ما» في موضع النصب بأنزل ، أو ب أرأيتم ، في معنى : أخبرونيه فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً أى أنزله اللّه رزقا حلالا كله فبعضتموه وقلتم : هذا حلال وهذا حرام وكقولهم هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ، ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ متعلق ب أرأيتم. وقل : تكرير للتوكيد.

والمعنى : أخبرونى الله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريرا للافتراء. وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت ، وإلا فهو مفتر على الله يَوْمَ الْقِيامَةِ منصوب بالظنّ ، وهو ظنّ واقع فيه ، يعنى : أى شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره. وقرأ عيسى بن عمر : وما ظنّ ، على لفظ الفعل. ومعناه : وأى ظنّ ظنوا يوم القيامة. وجيء به على لفظ الماضي لأنه كائن فكأن قد كان إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

[سورة يونس (10) : آية 61]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61)

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ «ما» نافية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشأن : الأمر ، وأصله الهمز بمعنى القصد ، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير في مِنْهُ للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو معظم شأنه ، أو للتنزيل ، كأنه قيل : وما تتلو من التنزيل من قرآن ، لأنّ كلّ جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو لله عزّ وجل. وما تَعْمَلُونَ أنتم جميعاً مِنْ عَمَلٍ أىّ عمل كان إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً شاهدين رقباء نحصي عليكم إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه وَما يَعْزُبُ قرئ بالضم والكسر : وما يبعد وما يغيب ، ومنه : الروض العازب وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ القراءة بالنصب والرفع ، والوجه النصب على نفى الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاما برأسه ، وفي العطف على محل مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ أو على لفظ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فتحاً في موضع الجرّ لامتناع الصرف : إشكال ، لأنّ قولك «لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب» مشكل. فإن قلت : لم قدّمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في سورة سبأ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ؟ قلت : حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله لا يَعْزُبُ عَنْهُ لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء ، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

[سورة يونس (10) : الآيات 62 إلى 64]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

أَوْلِياءَ اللَّهِ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. وقد فسر ذلك في قوله الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ فهو توليهم إياه هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ فهو توليه إياهم. وعن سعيد بن جبير أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل : من أولياء الله؟

فقال : «هم الذين يذكر الله برؤيتهم «1» يعنى السمت والهيئة. وعن ابن عباس رضى الله عنه : الإخبات والسكينة. وقيل : هم المتحابون في الله. وعن عمر رضى الله عنه : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول «إنّ من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله» قالوا يا رسول الله ، خبرنا من هم وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم ، قال : «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»

(1). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عنه به وابن مردويه من طريق يحيى الحمامي عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله النسائي والبزار من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب بذكر ابن عباس. قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله قال : الذين إذا رأوا ذكر الله. قال البزار : رواه غير محمد عن يعقوب بغير ذكر ابن عباس.

ثم قرأ الآية «1» الَّذِينَ آمَنُوا نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى ، والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه ، وعن النبىّ صلى الله

(1). أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري وأبو نعيم في أوائل الحلية والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبى زرعة عن عمر به. قال البيهقي : أبو زرعة عن عمر مرسل. ورواه ابن مردويه من وجه آخر يذكر أبى هريرة بين أبى زرعة وعمر ورواه النسائي وابن حبان من وجه آخر عن أبى زرعة عن أبى هريرة. فلم يذكر عمر. وفي الباب عن أنس أخرجه ابن عدى والعقيلي والبيهقي في الشعب أيضا في العاشر منه وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي. وهما ضعيفان. وعن أبى الدرداء أخرجه الطبراني وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط. وعن أبى مالك الأشعرى. أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني والبيهقي وفيه شهر بن حوشب وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه. وعن العلاء بن زياد مرسلا. أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه.
(2). أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم والبيهقي وأحمد وإسحاق من طريق أبى سلمة عن عبادة بن الصامت قال :
سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» رجاله ثقات : إلا أنه معلول ، فان أبا سلمة لم يسمع من عبادة ، وقد أخرجه الترمذي والحاكم أيضا عن أبى سلمة قال : نبئت عن عبادة ، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبد الرحمن المرسى عن عبادة. وأخرجه الترمذي أيضا وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني والبيهقي من طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر : سألت أبا الدرداء عن قول اللّه تعالى هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا
قال سألت عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، زاد بعضهم «و في الآخرة الجنة» قال ابن أبى حاتم عن أبيه : هذا الرجل لا يعرف. وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ «سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فذكر مثل حديث عبادة ، وعن جابر بن عبد اللّه بن رباب أخرجه البزار وابن عدى ومن طريق الكلبي عن أبى صالح عنه مرفوعا في قوله تعالى هُمُ الْبُشْرى
- الحديث. وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن أبى جعفر عن جابر. قال : جابر هذا هو ابن رباب. كذا قال فأخطأ. وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أبى هريرة أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبى صالح عنه. قيل : انفرد به عمار. لكن أخرجه النسائي في الكنى من رواية إسحاق بن عبد الرحمن بن عمر :
أن الأعمش حدثه ، فذكره. وقال : أبو إسحاق لا أعرفه. والحديث خطأ. وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أخرجه النسائي وأبو يعلى من رواية دراج عن عبد الرحمن بن جبير عنه. وزاد «الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزآ من النبوة.
(3). أخرجه مسلم بلفظ «فتحبه وتحمده الناس عليه».

لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ولِكَ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ، وكلتا الجملتين اعتراض ،

[سورة يونس (10) : آية 65]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

وَلا يَحْزُنْكَ وقرئ : ولا يحزنك ، من أحزنه قَوْلُهُمْ تكذيبهم لك ، وتهديدهم ، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وسائر ما يتكلمون به في شأنك إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : مالى لا أحزن؟ فقيل ، إنّ العزة للّه جميعاً ، أى إن الغلبة والقهر في ملكة اللّه جميعاً ، لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرك عليهم كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وقرأ أبو حيوة. أن العزة ، بالفتح بمعنى : لأن العزة على صريح التعليل. ومن جعله بدلا من قولهم ثم أنكره ، فالمنكر هو تخريجه ، لا ما أنكر من القراءة به هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع ما يقولون. ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه. وهو مكافئهم بذلك.

[سورة يونس (10) : آية 66]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66)

مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم ، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم ، وهو سبحانه وتعالى ، ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكا له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له نداً وشريكا ، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنسى فضلا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر.

[سورة يونس (10) : آية 67]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة ، بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش ، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع معتبر مدّكر.

[سورة يونس (10) : آية 68]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68)

سُبْحانَهُ تنزيه له عن اتخاذ الولد ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء هُوَ الْغَنِيُّ علة لنفى الولد لأنّ ما يطلب به الولد من يلد ، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة ، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيا لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدا إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله : إِنْ عِنْدَكُمْ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان ، كقولك. ما عندكم بأرضكم موز ، كأنه قيل : إن عندكم فيما تقولون سلطان أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

[سورة يونس (10) : الآيات 69 إلى 70]

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بإضافة الولد إليه مَتاعٌ فِي الدُّنْيا أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا ، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به ، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

[سورة يونس (10) : الآيات 71 إلى 73]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

كَبُرَ عَلَيْكُمْ عظم عليكم وشق وثقل. ومنها قوله تعالى وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ ويقال : تعاظمه الأمر مَقامِي مكاني ، يعنى نفسه ، كما تقول : فعلت كذا لمكان فلان : وفلان ثقيل الظل. ومنه وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ بمعنى خاف ربه. أو قيامي «1» ومكثي بين أظهركم مدداً طوالا ألف سنة إلا خمسين عاماً. أو مقامي «2» وتذكيري ، لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ، ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعا ،

والواو بمعنى «مع» يعنى : فأجمعوا أمركم مع شركائكم. وقرأ الحسن : وشركاؤكم بالرفع ، عطفا على الضمير المتصل ، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام ، كما تقول : اضرب زيداً وعمرو. وقرئ : فاجمعوا من الجمع. وشركاءكم نصب للعطف على المفعول ، أو لأنّ الواو بمعنى «مع» وفي قراءة أبىّ : فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم. فإن قلت : كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت : على وجه التهكم ، كقوله قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ. فإن قلت : ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه ، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت : أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه ، يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي. وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا.

(1). قوله «أو قيامي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم. (ع)
(2). قوله «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قيامي. (ع)
(3) يا ليت شعري والحوادث جمة هل أغدون يوما وأمرى مجمع
قوله «و الحوادث جمة» أى كثيرة. جملة اعتراضية. وأغدون : مؤكد بالنون الخفيفة. وأمرى مجمع : أى منوي مجزوم بامتثاله. أو المعنى : وشملى مجتمع بعد تفرقه ، وهي جملة حالية مغنية عن خبر أغدون. أو خبرها. وزيدت الواو لتوكيد الربط. وأجمع يتعلق بالمعقول ، وجمع يتعلق بالمحسوس.

وأما الثاني ففيه وجهان ، أحدهما : أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم ، يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة : أى غما وهما. والغم والغمة ، كالكرب والكربة. والثاني أن يراد به ما أريد بالأمر الأول ، والغمة السترة من غمه إذا ستره.

ومنها قوله عليه السلام «و لا غمة في فرائض اللّه» «1» أى لا تستر ، ولكن يجاهر بها ، يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا «2» عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروننى به ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ذلك الأمر الذي تريدون بى ، أى : أدوا إلىَّ قطعه وتصحيحه ، كقوله تعالى وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أو أدّوا إلىّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه وَلا تُنْظِرُونِ ولا تمهلوني. وقرئ : ثم أفضوا إلىّ ، بالفاء بمعنى : ثم انتهوا إلىّ بشرّكم. وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء ، أى أصحروا به إلىّ وأبرزوه لي فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أى : ما نصحتكم إلا لوجه اللّه ، لا لغرض من أغراض الدنيا وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، يريد : أنذلك مقتضى الإسلام ، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته ، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه ، وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير فَكَذَّبُوهُ فتموا على تكذيبه «3» وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها ، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ يخلفون الهالكين بالغرق كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن أنذرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن مثله ، وتسلية له.

[سورة يونس (10) : آية 74]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)

مِنْ بَعْدِهِ من بعد نوح رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق.

(1). هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى الأقيال ، وفيه : «و لا يوصم في الدين ولا غمة في فرائض اللّه» وقال : الغمة السترة ، أى لا تستر في فرائض اللّه ، بل ظاهر بها. [.....]
(2). قوله «مستورا عليكم» لعله أراد ملتبسا ، فلذا قال عليكم ، كما أشار إليه النسفي. (ع)
(3). قوله «فتموا على تكذيبه» أى استمروا. أفاده الصحاح. (ع)

فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها ، كأن لم يبعث إليهم أحد كَذلِكَ نَطْبَعُ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ، لأنّ الخذلان يتبعه. ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

[سورة يونس (10) : الآيات 75 إلى 78]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78)

مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد الرسل بِآياتِنا بالآيات التسع فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ كفاراً ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردّها فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا فلما عرفوا أنه هو الحق ، وأنه من عند اللّه ، لا من قبل موسى وهرون قالُوا لحبهم الشهوات إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلا. فإن قلت : هم قطعوا بقولهم إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ على أنه سحر ، «1» فكيف قيل لهم : أتقولون أسحر هذا؟ قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ أتعيبونه وتطعنون فيه. وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ، ونحو القول : الذكر ، في قوله سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ثم قال أَسِحْرٌ هذا فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه ، وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ كأنه قيل. أتقولون ما تقولون ، يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا : أَجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ كما قال

(1). قال محمود : «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سحر ... الخ» قال أحمد : وفي الفرق بين الوجهين غموض ، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب ، فلا يتقاضى مفعولا وفي الثاني على أنه يطلب مفعولا واللّه أعلم.

موسى للسحرة : ما جئتم به السحر ، إنّ اللّه سيبطله لِتَلْفِتَنا لتصرفنا. واللفت والفتل : أخوان ، ومطاوعهما الالتفات والانفتال عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا يعنون عبادة الأصنام وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ أى الملك ، لأنّ الملوك موصوفون بالكبر. ولذلك قيل للملك : الجبار ، ووصف بالصيد والشوس ، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله : مُلْكُهُ مُلْكُ رَأفَة لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءُ «1»

ينفى ما عليه الملوك من ذلك. ويجوز أن يقصدوا ذمّهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ، كما قال القبطي لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ أى مصدّقين لكما فيما جئتما به. وقرئ : يطبع ، ويكون لكما ، بالياء.

[سورة يونس (10) : الآيات 79 إلى 82]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

ما جِئْتُمْ بِهِ ما موصولة واقعة مبتدأ. والسِّحْرُ خبر ، أى الذي جئتم به هو السحر «2»

(1). لعبد اللّه بن قيس الرقيات. وقيل : لقيس الرقيات يمدح مصعبا ، سمى قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نسوة ، كل منهن تسمى رقية. وملك : وصف كحذر ، فلذلك نصب «ملك رأفة» على المصدر. وروى «ملكه ملك» على المبتدأ والخبر. وضمير «فيه» للمصدر ، أى : ليس في ملكه جبروت منه ، أى من مصعب.
ويحتمل أن الضميرين له. والجبروت : مبالغة في الجبر والقهر ، أى : ليس فيه ذلك كغيره ، فهو أعظم الملوك.
(2). قال محمود : «ما موصولة مبتدأ ، والسحر خبر أى الذي جئتم به ... الخ» قال أحمد : وليس المراد في القراءة الأولى الاخبار بأن ما جاءوا به سحر خاصة ، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً. وإنما يستفاد ذلك مما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر ، ولو مرت بخاطر الامام أبى المعالي في مسألة تحريمة التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر ، فانا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاءوا به محصوراً فيه ، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به

ألا ترى أنهم يقولون في قوله : أأنت أم سالم ، أبلغ في البت من قوله : مخبرا أنت أم سالم؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة بيت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا : إن هذا لسحر مبين ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني ، ووبخهم موسى على قولهم الأول. ومعنى العبارتين ومآلهما واحد. وإما أن لا يكونوا قالوا سوى أَسِحْرٌ هذا على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله ، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وبت القول أنه سحر. وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى. وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني.
وحاصل هذا البحث : أن قول موسى عليه السلام أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهما ، فقال : ما جئتم به آلسحر؟ على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء ، والذي يحقق لك أن الاستفهام والاخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد : أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ على الوجهين: الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان ، وهو قول واحد دل على أن مؤدى الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر. وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب ، أو إضمار مفعول تقولون. استشكالا لوقوع الاستفهام محكياً بالقول ، والمحكي أولا عنهم الخبر. وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين ، فشد بهذا الفصل عرى التمسك ، فانه من دقائق النكت. والله الموفق.

لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. وقرئ : آلسحر ، على الاستفهام. فعلى هذه القراءة «ما» استفهامية ، أى : أىّ شيء جئتم به ، أهو السحر؟ وقرأ عبد الله : ما جئتم به سحر.

وقرأ أبىّ : ما أتيتم به سحر. والمعنى : لا ما أتيت به إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لا يثبته ولا يديمه ، ولكن يسلط عليه الدمار وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ويثبته بِكَلِماتِهِ بأوامره وقضاياه. وقرئ : بكلمته ، بأمره ومشيئته.

[سورة يونس (10) : آية 83]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

فَما آمَنَ لِمُوسى في أوّل أمره إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ إلا طائفة من ذراري بنى إسرائيل ، كأنه قيل : إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. وقيل : الضمير في قومه لفرعون ، والذرية : مؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، وماشطته. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله وَمَلَائِهِمْ؟ قلت : إلى فرعون ، بمعنى آل فرعون ، كما يقال : ربيعة ومضر. أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية ، أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ويدل عليه قوله أَنْ يَفْتِنَهُمْ يريد أن يعذبهم وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ لغالب فيها قاهر وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ في الظلم والفساد ، وفي الكبر والعتو ، بادعائه الربوبية.

[سورة يونس (10) : الآيات 84 إلى 86]

وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86)

إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ صدقتم به وبآياته فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام ، وهو أن يسلموا نفوسهم لله ، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها ، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. ونظيره في الكلام : إن ضربك زيد فاضربه ، إن كانت بك قوّة فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا إنما قالوا ذلك ، لأنّ القوم كانوا مخلصين ، لا جرم أنّ الله سبحانه قبل توكلهم ، وأجاب دعاءهم ، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء في أرضه ، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه ، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً موضع فتنة لهم ، أى : عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

[سورة يونس (10) : آية 87]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(87)

تبوّأ المكان : اتخذه مباءة ، كقولك : توطنه ، إذا اتخذه وطناً. والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته «1» مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ تلك قِبْلَةً أى مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة ، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة ، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة. فإن قلت : كيف نوّع الخطاب ، فثنى أوّلا ، ثم جمع ، ثم وحد آخراً. قلت : خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتا ، ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأنّ ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض ، تعظيما لها وللمبشر بها.

[سورة يونس (10) : آية 88]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88)

(1). قوله «بمصر بيوتا من بيوته» لعل الضمير لمصر. (ع)

الزينة : ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت. فإن قلت : ما معنى قوله رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ؟ قلت : هو دعاء بلفظ الأمر «1» ، كقوله رَبَّنَا اطْمِسْ ، وَاشْدُدْ ، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات اللّه وبيناته عرضا مكرّرا وردّد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلا ، وحذرهم عذاب اللّه وانتقامه ، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً ، وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة «2» إلا نبوّا ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغى والضلال ، وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة ، أو علم ذلك بوحي من اللّه - اشتد غضبه عليهم ، وأفرط مقته وكراهته لحالهم ، فدعا اللّه عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما تقول : لعن اللّه إبليس ، وأخزى اللّه الكفرة ، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك ، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة ، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون «3» فيه ، كأنه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال.

وليكونوا ضلالا ، «4» وليطبع اللّه على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علىّ منهم ، هم أحق بذلك وأحق ، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه ، حسرة على ما فاته من قبول نصيحته ، وحرداً «5» عليه ، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشدّ على القلوب. الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان فَلا يُؤْمِنُوا جواب للدعاء الذي هو «اشدد» أو دعاء بلفظ النهى ، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل ، على أنهم جعلوا نعمة اللّه سبباً في الضلال ، فكأنهم أوتوها ليضلوا. وقوله فَلا يُؤْمِنُوا عطف على ليضلوا. وقوله رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي : أإنك آتيت؟
على الاستفهام ، واطمس بضم الميم.

(1). قال محمود : «قلت هو دعاء بلفظ الأمر ... الخ» قال أحمد : وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل ، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفا. ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام التعليل ، وأن الفعل منصوب بها ، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن اللّه إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجا ليزدادوا إثما وضلالة ، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وهذا المعنى منتظم على جعل اللام التعليل ، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على اللّه تعالى ، لاعتقاده أن من الجور أن يملى لهم في الضلالة ويعاقبهم عليها ، فهو متبتل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعا له ، كما تقدم له في تأويل قوله لِيَزْدادُوا إِثْماً وكأين من آية غراء رام أن يسترغرتها ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً ، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات ، ولقد برأه اللّه وكان عند اللّه وجيها.
(2). قوله «و عن النصيحة» لعله وعلى (ع)
(3). قوله «يتسكعون» في الصحاح : «التسكع» التمادي في الباطل. (ع)

(4). قوله «و ليكونوا ضلالا» هذا على قراءة «ليضلوا» بفتح الياء. والقراءة المشهورة لِيُضِلُّوا بضمها.
وعبارة النسفي : ليضلوا الناس عن طاعتك اه (ع)
(5). قوله «و حرداً عليه» في الصحاح : الحرد - بالتحريك : الغضب. (ع)

[سورة يونس (10) : آية 89]

قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89)

قرئ : دعواتكما. قيل : كان موسى يدعو وهرون يؤمّن. ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان.

والمعنى : إنّ دعاء كما مستجاب ، وما طلبتما كائن ولكن في وقته فَاسْتَقِيما فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة ، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا ولا تستعجلا. قال ابن جريج : فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى لا تتبعا طريق الجهلة بعادة اللّه في تعليقه الأمور بالمصالح ، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح عليه السلام إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ وقرئ : ولا تتبعان ، بالنون الخفيفة ، وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية ، وبتخفيف التاء من تبع.

[سورة يونس (10) : آية 90]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

قرأ الحسن : وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه ، وليس من جوز الذي في بيت الأعشى : وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِبَالَ قَبِيلَةٍ «1»

(1) وإذا تجوزنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالا
للأعشى. وشبه عهود الأمان التي يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال ، يجامع التوثق بكل على طريق التصريحية. أى : وإذا تجشمنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها ، فايقاع التجوز على الحبال :
مجاز عقلى ، أخذت ناقتي من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالا ، أى عهوداً للتوصل القبيلة الأخرى ، وهكذا. وإسناد الأخذ لها مجاز عقلى ، ويكفى في الملابسة مجاورتها له حين الفعل. وإنما أسنده إليها للمبالغة ، وتخييل أنها تعرف الممدوح وفضله ، فهي المسافرة إليه بنفسها. وروى يجوزها. وجبال بالجيم ، فمعنى أخذت :
قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالا غير تلك. وعلى كل ، ففيه دليل على صعوبة الطريق.

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوّزنا بنى إسرائيل في البحر كما قال : كَمَا جَوَّزَ السَّكِّىَّ فِى الْبَابِ فَيْتَقُ«1»

فَأَتْبَعَهُمْ فلحقهم. يقال : تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن : وعدوّا «2». وقرئ : أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان ، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلا من آمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته. وقاله حين لم يبق له اختيار قط ، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

[سورة يونس (10) : الآيات 91 إلى 92]

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)

آلْآنَ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق «3» وأيست من نفسك.

قيل : قال ذلك حين ألجمه الغرق يعنى حين أوشك أن يغرق. وقيل : قاله بعد أن غرق في نفسه.

والذي يحكى أنه حين قال آمَنَتْ أخذ جبريل من حال البحر «4» فدسه في فيه ، فللغضب للّه على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه. وأمّا ما يضم إليه من قولهم : خشية أن تدركه رحمة اللّه فمن زيادات الباهتين «5» للّه وملائكته : وفيه جهالتان ، إحداهما : أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس ، فحال البحر لا يمنعه.

(1) ولا بد من جار يجيز سبيلها كما جوز السكى في الباب فيتق
للأعشى يصف مفازة الغزل فيها المحلق عن بنى عكاظ كما يأتى قريباً. يقول : ولا بد لمريد قطعها من جار : أى قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها. وجازه يجوزه : سلكه. وأجازه يجيزه : أسلكه. وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيهما. والسكى : المسمار ، نسبة السك ، وهو تضبيب الباب وتسميره. والفيتق : النجار ، لأنه يفتق الخشب بالمسمار. ويروى : كما سلك السكى ، أى : لا يعد من معين ، ينفذه فيها كما أنفذ النجار المسمار في الباب.
وعبر بالماضي ليدل على أن المشبه به معهود للسامع.
(2). قوله : «و قرأ الحسن وعدوا» في الصحاح : عدا عدوا وعدوا وعداء اه. وقد مر في قوله تعالى فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً (ع) [.....]
(3). قال محمود : «معناه أتؤمن الساعة في وقت اضطرارك حين أدركك الغرق ... الخ» قال أحمد : ولقد أنكر منكراً ، وغضب للّه ولملائكته كما يجب لهم ، واللّه الموفق.
(4). قوله «من حال البحر فدسه» أى طينه الأسود. أفاده الصحاح. وفي الحديث «قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه» كذا في الخازن. (ع)
(5). قوله «الباهتين للّه» في الصحاح «بهته» إذا قال عليه ما لم يفعله. (ع)

والأخرى : أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضا بالكفر كفر «1» مِنَ الْمُفْسِدِينَ من الضالين المضلين عن الإيمان ، كقوله الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ وروى أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا : ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب : جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر ، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه نُنَجِّيكَ بالتشديد والتخفيف : نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر. وقيل : نلقيك بنجوة من الأرض. وقرئ ننحيك ، بالحاء : نلقيك بناحية مما يلي البحر ، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب : رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور بِبَدَنِكَ في موضع الحال ، أى : في الحال التي لا روح فيك ، وإنما أنت بدن ، أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شيء ولم يتغير.

(1). قوله «و الذي يحكى» ... إلى قوله «لأن الرضا بالكفر» هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله. فان الحديث صحيح الزيادات ، وقد أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي وابن حبان والحاكم وإسحاق والبزار وأبو داود والطيالسي كلهم من رواية شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول لا إله إلا اللّه فيرحمه اللّه» لفظ الترمذي والباقين نحوه ، وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبزار والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ، بلفظ «لما أغرق اللّه فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة ، وله طريق أخرى أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحمانى في مسنده عن أبى خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال جبريل عليه السلام النبي صلى اللّه عليه وسلم : وذكر فرعون «فلقد رأيتنى وأنا لأكبر فمه بالحمأة مخافة أن تدركه الرحمة ، وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه الطبري وابن أبى حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبى حازم عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال قال لي جبريل «لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فرعون مخافة أن يقول ربى اللّه ، فتدركه رحمة اللّه» وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول قال لي جبريل : يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال : ما علمت لكم من إله غيرى. وإذ نادى فقال : أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشو فاه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبى ضمرة عن عبد اللّه بن أبى قيس عنه ، قلت : وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري ، فالحديث توجيه وجيه ، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري ، وذلك أن فرعون كان كافراً كفر عناد ، ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل ، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص ، فأجرى له النيل ، ثم تمادى على طغيانه وكفره فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة اللّه فيؤخره في الدنيا فيستمر على غيه وطغيانه فدس في فمه الطين ، ليمنعه التكلم بما يقتضى ذلك ، هذا وجه الحديث.
ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد وأيضاً فايمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقا بقلبه لا يقبل لأنه وقع في حال الاضطرار ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وفيه إشارة في قوله تعالى فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا.

أو عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس. أو بدرعك. قال عمرو بن معد يكرب :

أَعَاذِلُ شَكَّتِى بَدَنِى وَسَيْفِى وَكُلُّ مُقَلِّصٍ سَلِسُ الْقِيَادِ «1»

وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرأ أبو حنيفة رحمه اللّه : بأبدانك وهو على وجهين : إما أن يكون مثل قولهم : هوى بأجرامه ، يعنى : ببدنك كله وافياً بأجزائه. أو يريد : بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً لمن وراءك من الناس علامة ، وهم بنو إسرائيل ، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق.

[سورة يونس (10) : آية 93]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

مُبَوَّأَ صِدْقٍ منزلا صالحاً مرضيا وهو مصر والشام فَمَا اخْتَلَفُوا في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرأوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة ، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه. وقيل هو العلم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم واختلاف بنى إسرائيل ، وهم أهل الكتاب ، اختلافهم في صفته ونعته، وأنه هو أم ليس به. بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه. كما قال اللّه تعالى الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ.

(1). لعمرو بن معديكرب ، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب. يقول : يا عاذلة ، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسي المكتنز اللحم المدبج الخلق. وقيل : المقلص الطويل القوائم الهين القود. ويروى : سهل القياد.
والمعنى واحد. وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية ، وأتى بأداة العموم في الفرس لأنه الذي يكثر تغييره.

[سورة يونس (10) : الآيات 94 إلى 95]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95)

فإن قلت : كيف قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ مع قوله في الكفرة وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ «1» قلت : فرق عظيم بين قوله إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق ، وبين قوله فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ بمعنى الفرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خبالا منه تقديراً فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ والمعنى : أن اللّه عز وجل قدم ذكر بنى إسرائيل وهم قرأة الكتاب ، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم ، لأنّ أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه السلام ، ويبالغ في ذلك ، فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديراً - وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها ، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته ، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق - فسل علماء أهل الكتاب ، يعنى : أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساآتهم فضلا عن غيرك ، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول اللّه ، لا وصف رسول اللّه بالشك فيه ، ثم قال لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أى ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أنّ ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات اللّه. ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب، كقوله فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ.

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ولزيادة التثبيت والعصمة ، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق «2»» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : لا واللّه ، ما شك طرفة عين ، ولا سأل أحداً منهم ،

(1). قال محمود : «إن قلت كيف قال له عليه السلام : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مع قوله في الكفرة وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ... الخ؟ قال أحمد : ولو قال هذا المفسر : إن نفى الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسئولين لا ليستفيد بسؤالهم علما لمزيد تعين الإبراء بقوله له قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ فأمر بالسؤال والجواب جميعا - لكان أقوم وأسلم ، والله أعلم.
(2). أخرجه عبد الرزاق ، ومن طريقه الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية ، قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا أشك ولا أسأل».

وقيل خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد خطاب أمته. ومعناه : فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم ، كقوله وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً وقيل : الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك ، كقول العرب : إذا عز أخوك فهن. وقيل : «إن» للنفي ، أى : فما كنت في شك فاسأل ، يعنى : لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقينا ، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينه إحياء الموتى. وقرئ : فاسأل الذين يقرؤن الكتب.

[سورة يونس (10) : الآيات 96 إلى 97]

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97)

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره. وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومراد «1» تعالى الله عن ذلك.

[سورة يونس (10) : آية 98]

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98)

فَلَوْلا كانَتْ فهلا كانت قَرْيَةٌ واحدة من القرى التي أهلكناها ، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه فَنَفَعَها إِيمانُها بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار. وقرأ أبىّ.

وعبد الله : فهلا كانت إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ استثناء من القرى ، لأنّ المراد أهاليها ، وهو استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس لما آمنوا. ويجوز أن يكون متصلا والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع على البدل ، هكذا روى عن الجرمي والكسائي. روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه ، فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب ، فلبسوا المسوح ، وعجوا»

أربعين ليلة. وقيل : قال لهم يونس : إن أجلكم أربعون ليلة ، فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ،

(1). قوله «لا كتابة مقدر ومراد» مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر. وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيرا كان أو شرا. (ع)
(2). قوله «و عجوا» أى رفعوا أصواتهم. أفاده الصحاح. (ع)

وفرّقوا بين النساء والصبيان ، وبين الدواب وأولادها ، فحنّ بعضها على بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا ، فرحمهم الله وكشف عنهم ، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة. وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم ، حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيردّه، وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم : قولوا «يا حىّ حين لا حىّ ، ويا حىّ محيى الموتى ، ويا حىّ لا إله إلا أنت» فقالوها فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض : قالوا : «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

[سورة يونس (10) : آية 99]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ مشيئة القسر «1» والإلجاء «2» لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ على وجه الإحاطة والشمول جَمِيعاً مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه. ألا ترى إلى قوله أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ يعنى إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت. وإيلاء الاسم حرف الاستفهام ، للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشأن في المكره من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه ، لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرّون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشر.

[سورة يونس (10) : آية 100]

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100)

(1). قوله «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة ، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح ، وإيمان الكل أصلح ، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا : إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير العباد ، فلم يلزم وقوع المراد ، ولو أراده إرادة إجبار لوقع ، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئا ، ولزوم وقوع المراد لا ينافي تخيير العباد ، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله ، كما تقرر في التوحيد. (ع)

(2). قال محمود : «المراد مشيئة القسر والإلجاء» قال أحمد : وهذا من دسه الاعتزال مخلسا ، وخلط الباطل بالحق مدلسا. ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى لايمان الخلق بصيغة الكلية ، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر - إذ مقتضى «لولا» امتناع ، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد ، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الايمان من جميع أهل الأرض ، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الايمان إلى مشيئة القسر والإلجاء ، ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع ، إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم ، بل أمرهم بالايمان وخلق لهم اختيارا له وقصداً ، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل. بل هو أجدر بالتعطيل ، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله ، نعوذ بالله من زيغ الشيطان وإضلاله ، والله الموفق.

وَما كانَ لِنَفْسٍ يعنى من النفوس التي علم أنها تؤمن إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى بتسهيله وهو منح الألطاف وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان «1» ، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر ، كقوله صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ وسمى الخذلان رجسا وهو العذاب لأنه سببه. وقرئ: الرجز ، بالزاي. وقرئ ونجعل ، بالنون.

[سورة يونس (10) : آية 101]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101)

ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الآيات والعبر وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ والرسل المنذرون ، أو الإنذارات عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ لا يتوقع إيمانهم ، وهم الذين لا يعقلون وقرئ : وما يغنى ، بالياء ، و«ما» نافية ، أو استفهامية.
[سورة يونس (10) : الآيات 102 إلى 103]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وقائع الله تعالى فيهم ، كما يقال «أيام العرب» لو قائعها ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ، على حكاية الأحوال الماضية وَالَّذِينَ آمَنُوا ومن آمن معهم ، كذلك نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم، ونهلك المشركين.

وحَقًّا عَلَيْنا اعتراض ، يعنى : حقّ ذلك علينا حقاً. وقرئ : ننجّ ، بالتشديد.

[سورة يونس (10) : آية 104]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)

يا أَيُّهَا النَّاسُ يا أهل مكة إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي وصحته وسداده ، فهذا دينى فاسمعوا وصفه ، واعرضوه على عقولكم ، وانظروا فيه بعين الإنصاف ، لتعلموا أنه دين

(1). قوله «و هو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة ، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله. (ع)

لا مدخل فيه للشك ، وهو أنى لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وإنما وصفه بالتوفى ، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى ، فيعبد دون مالا يقدر على شيء وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يعنى أنّ اللّه أمرنى بذلك ، بما ركب فىّ من العقل ، وبما أوحى إلىّ في كتابه. وقيل : معناه إن كنتم في شك من دينى ومما أنا عليه - أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمرى ، واقطعوا غنى أطماعكم ، واعلموا أنى لا أعبد الذين تعبدون من دون اللّه ، ولا أختار الضلالة على الهدى ، كقوله قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ. أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أصله : بأن أكون ، فحذف الجار ، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارّة مع «إن» و«أن». وأن يكون من الحذف غير المطرد ، وهو قوله : أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

[سورة يونس (10) : آية 105]

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)

فإن قلت ، عطفُ قوله وَأَنْ أَقِمْ على أَنْ أَكُونَ فيه إشكال ، لأنّ «أن» لا تخلو من أن تكون التي للعبارة ، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر ، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول ، لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك. والقول بكونها موصولة مثل الأولى ، لا يساعد عليه لفظ الأمر ، وهو أَقِمْ لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب. قلت : قد سوّغ سيبويه أن توصل «أن» بالأمر والنهى، وشبه ذلك بقولهم : أنت الذي تفعل ، على الخطاب ، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر. والأمر والنهى دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال أَقِمْ وَجْهَكَ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالا. وحَنِيفاً حال من الدين ، أو من الوجه.

[سورة يونس (10) : آية 106]

وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

فَإِنْ فَعَلْتَ معناه : فإن دعوت من دون اللّه مالا ينفعك ولا يضرّك ، فكنى عنه بالفعل إيجازاً فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر ، كأنّ سائلا سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين ، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

[سورة يونس (10) : آية 107]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، أنّ اللّه عزّ وجلّ هو الضارّ النافع ، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذي لا شعور به. وكذلك إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها ، وهو أبلغ من قوله إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ. فان قلت : لم ذكر المس في أحدهما ، والإرادة في الثاني؟ قلت : كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً : الإرادة والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير ، وأنه لا رادّ لما يريده منهما ، ولا مزيل لما يصيب به منهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما ، والإرادة في الآخر ، ليدلّ بما ذكر على ما ترك ، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ والمراد بالمشيئة : مشيئة المصلحة.

[سورة يونس (10) : آية 108]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ فلم يبق لكم عذر ولا على اللّه حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه ، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه ، واللام وعلى : دلا على معنى النفع والضر. وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل. وفيه حث على إيثار الهدى واطراح الضلال مع ذلك وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم على ما أريد ، إنما أنا بشير ونذير.

[سورة يونس (10) : آية 109]

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

وَاصْبِرْ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وروى أنها لما نزلت جمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الأنصار فقال «إنكم ستجدون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني «1»» يعنى أنى أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتنى الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة ، قال أنس : فلم نصبر. وروى أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار ، ثم دخل عليه من بعد ، فقال له : مالك لم تتلقنا؟ قال : لم تكن عندنا دواب. قال : فأين النواضح؟ قال : قطعناها

(1). ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد اللّه بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير ، ليس فيه كون الآية سبب ذلك ، بل سببه قسمة غنائم حنين.

في طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية : فما ذا قال؟ قال : قال «فاصبروا حتى تلقوني» قال فاصبر. قال : إذن نصبر. فقال عبد الرحمن بن حسان «1» :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ أَمِيرَ الظّالِمِينَ نَثًا كَلَامِى

بِأَنّا صَابِرُونَ فَمُنْظِرُوكُمْ إِلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَالْخِصَامِ «2»

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة يونس أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون «3»

(1). أخرجه إسحاق بن راهويه. ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى : فقال معاوية تلقانا الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار فما يمنعكم أن تلقوني؟
قال : لم تكن لنا دواب. فقال معاوية : فأين النواضح. قال أبو قتادة. عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر.
ثم قال أبو قتادة : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أما إنكم سترون بعدي أثرة. قال معاوية : فما أمركم؟ قال :
أمرنا أن نصبر حتى تلقاه. قال : فاصبروا حتى تلقوه. فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك - فذكر البيتين.
وقال : يا أمير المؤمنين. [.....]
(2). لعبد الرحمن بن حسان ، حين دخل معاوية بن أبى سفيان بن حرب المدينة ، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة ، ثم دخل عليه فقال له : مالك تخلفت؟ فقال : لم يكن عندنا دواب. قال : فأين النواضح؟ قال : قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : يا معشر الأنصار ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية ، فما ذا قال؟ قال : فاصبروا حتى تلقوني. قال : فاصبروا. قال : إذا نصبر. والثناء يقال للخير ، وقد يقال الشر. والنثا :
خاص بالشر. وروى «نثا كلامى» ومنظروكم : ممهلوكم. أى أنت وقومك. والتغابن : ظهور الغبن العمال في تجارات الأعمال. والخصام : المخاصمة والمجادلة ، أى إلى يوم القيامة.
(3). تقدم إسناده في آل عمران. ويأتى في آخر القرآن.

سورة هود عليه السلام

(مكية [إلا الآيات 12 و17 و114 فمدنية] وهي مائة وثلاث وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة هود (11) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

أُحْكِمَتْ آياتُهُ نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف.

ويجوز أن يكون نقلا بالهمزة ، من «حكم» بضم الكاف ، إذا صار حكيما : أى جعلت حكيمة ، كقوله تعالى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح. قال جرير :

أَبَنِى حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا «1»

وعن قتادة : أُحكمت من الباطل ثُمَّ فُصِّلَتْ كما تفصل القلائد بالفرائد ، من دلائل التوحيد ، والأحكام ، والمواعظ، والقصص. أو جعلت فصولا ، سورة سورة ، وآية آية. وفرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة. أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد : أى بين ولخص. وقرئ : أحكمت آياته ثم فصلت : أى أحكمتها أنا ثم فصلتها. وعن عكرمة والضحاك : ثم فصلت ، أى فرّقت بين الحق والباطل. فإن قلت : ما معنى ثم؟ قلت : ليس معناها التراخي في الوقت ، ولكن في الحال ، كما تقول : هي محكمة أحسن الأحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل ، ثم كريم الفعل. وكتاب : خبر مبتدإ محذوف. وأحكمت : صفة له. وقوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت ، أى : من عنده إحكامها وتفصيلها. وفيه طباق حسن ، لأنَّ المعنى : أحكمها حكيم وفصلها : أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

---

(1). لجرير ، يقول : يا بنى حنيفة «امنعوا سفهاءكم عنى كما تمنع الدابة بالحكمة ، فان غضبى عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد ، فخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب : مفعول أخاف ، أى أخاف عليكم غضبى.

[سورة هود (11) : الآيات 2 إلى 4]

أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

أَلَّا تَعْبُدُوا مفعول له على معنى : لئلا تعبدوا. أو تكون «أن» مفسرة ، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا اللّه ، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا اللّه وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا أى أمركم بالتوحيد والاستغفار. ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى اللّه عليه وسلم ، إغراء منه على اختصاص اللّه بالعبادة. ويدل عليه قوله إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ كأنه قال : ترك عبادة غير اللّه ، إننى لكم منه نذير ، كقوله تعالى فَضَرْبَ الرِّقابِ والضمير في مِنْهُ للّه عز وجل ، أى : إننى لكم نذير وبشير من جهته ، كقوله رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ أو هي صلة لنذير ، أى : أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت : ما معنى ثم في قوله ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ؟ قلت : معناه استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا ، والاستغفار توبة ، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله ثُمَّ اسْتَقامُوا. يُمَتِّعْكُمْ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعمة متتابعة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن يتوفاكم ، كقوله فَلَنُحْيِيَنَّهُ

أو فضله في الثواب ، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات وَإِنْ تَوَلَّوْا وإن تتولوا عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة ، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء ، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه. وقرئ : وإن تولوا ، من ولى.

[سورة هود (11) : آية 5]

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5)

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعنى : ويريدون ليستخفوا من اللّه ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم. ونظير إضمار يريدون - لقود المعنى «1» إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ معناه فضرب فانفلق. ومعنى أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ ويزيدون الاستخفاء «2» حين يستغشون ثيابهم أيضاً ، كراهة لاستماع كلام اللّه تعالى ، كقول نوح عليه السلام جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ ثم قال يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ يعنى. أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، واللّه مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ، ونفاقهم غير نافق عنده. روى أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المحبة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث ، فكان يعجب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مجالسته ومحادثته ، وهو يضمر خلاف ما يظهر. وقيل : نزلت في المنافقين. وقرئ : تثنونى صدورهم ، واثنونى «افعوعل» من الثني ، كاحلولى من الحلاوة ، وهو بناء مبالغة ، قرئ بالتاء والياء. وعن ابن عباس لتثنونى. وقرئ تثنونّ وأصله تثنونن «تفعوعل» من الثن «3» وهو ما هش وضعف من الكلأ ، يريد : مطاوعة صدورهم للثنى ، كما ينثني الهش من النبات. أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم. وقرئ : تثنئن ، من اثنأن «أفعال» منه ، ثم همز كما قيل : ابيأضت ، وأدهأمت وقرئ : تثنوى ، بوزن ترعوى.

[سورة هود (11) : آية 6]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6)

فإن قلت : كيف قال عَلَى اللَّهِ رِزْقُها بلفظ الوجوب «4» وإنما هو تفضل؟ قلت : هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم ، رجع التفضل واجباً كنذور العباد. والمستقرّ : مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار ، من صلب ، أو رحم ، أو بيضة كُلٌّ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها في اللوح ، يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين.

(1). قوله «لقود المعنى» أى لتأدية المعنى. (ع)
(2). قوله «و يزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله : ومعنى ألا حين الخ ، كما قال أولا ، يعنى ويريدون. (ع)
(3). قوله «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر : يبس الحشيش. (ع)
(4). قال محمود «إن قلت كيف قال على اللّه رزقها بلفظ الوجوب ... الخ» قال أحمد : كل ما يسديه اللّه تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة ، فذلك كله فضل ولا واجب على اللّه تعالى ، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن اللّه عز وجل لما وعدهم فضله - ووعده خبر ، وخبره صدق - وجب وقوع الموعود : أى يستحيل في العقل أن لا يقع ، للزوم الخلف في خبر الصادق ، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف ، وبينهما هذا الفرق المذكور. هذه قاعدة أهل الحق. وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ، واللّه الموفق.

[سورة هود (11) : آية 7]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ أى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض. وارتفاعه فوقها إلا الماء. وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض.

وقيل : وكان الماء «1» على متن الريح ، واللّه أعلم بذلك ، وكيفما كان فاللّه ممسك كل ذلك بقدرته ، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه لِيَبْلُوَكُمْ متعلق بخلق ، أى خلقهن لحكمة بالغة ، وهي أن يجعلها مساكن لعباده ، وينعم عليهم فيها بفنون النعم ، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي ، فمن شكر وأطاع أثابه ، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم. يريد : ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعملون. فإن قلت : كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت : لما في الاختبار من معنى العلم ، لأنه طريق إليه فهو ملابس له ، كما تقول : انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتا ، لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم. فإن قلت : كيف قيل : أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون ، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض اللّه من عباده ، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفاً للسامعين ، وترغيباً في حيازة فضلهم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم اللّه وأسرع في طاعة اللّه «2»» قرئ : ولئن قلت إنكم مبعوثون، بفتح الهمزة.

ووجهه أن يكون من قولهم : ائت السوق عنك تشترى لنا لحماً ، وأنك تشترى بمعنى علك ، أى : ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون ، بمعنى : توقعوا بعثكم وظنوه ، ولا تبتوا القول بإنكاره ، لقالوا :

(1). قوله «و قيل : وكان الماء» لعله «كان» بدون واو. ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء. (ع)
(2). أخرجه داود بن المجبر في كتاب العقل والحرث في مسنده عنه ، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر. وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه أيضا من طريق محمد ابن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك ، وإسناده أسقط من الأول.

إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ باتين القول ببطلانه. ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أنّ السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به. أو أشاروا «1» بهذا إلى القرآن لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. وقرئ : إن هذا إلا ساحر ، يريدون الرسول ، والساحر : كاذب مبطل ،

[سورة هود (11) : آية 8]

وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8)

الْعَذابَ عذاب الآخرة. وقيل عذاب يوم بدر. وعن ابن عباس : قتل جبريل المستهزئين إِلى أُمَّةٍ إلى جماعة من الأوقات ما يَحْبِسُهُ ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء. وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ منصوب بخبر ليس ، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس ، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها ، كان ذلك دليلا على جواز تقديم خبرها ، إذ المعمول تابع للعامل ، فلا يقع إلا حيث يقع العامل وَحاقَ بِهِمْ وأحاط بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ العذاب الذي كانوا به يستعجلون. وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون ، لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى : ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة اللّه في أخباره.

[سورة هود (11) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(11)

الْإِنْسانَ للجنس رَحْمَةً نعمة من صحة وأمن وجدة ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ ثم سلبنا تلك النعمة إِنَّهُ لَيَؤُسٌ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة. قاطع رجاءه من سعة فضل اللّه من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع كَفُورٌ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة اللّه نَسَّاءٌ له ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي أى المصائب التي ساءتني إِنَّهُ لَفَرِحٌ أشر

(1). قوله «أو أشاروا بهذا» لعله : وأشاروا. (ع)

بطر فَخُورٌ على الناس بما أذاقه اللّه من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر إِلَّا الَّذِينَ آمنوا ، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا ، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

[سورة هود (11) : آية 12]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات ، فكان يضيق صدر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه ، فحرّك اللّه منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ أى لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ بأن تتلوه عليهم أَنْ يَقُولُوا مخافة أن يقولوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أى هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ، ثم قال إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ أى ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه ، وكل أمرك إليه ، وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح ، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم. فإن قلت : لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت : ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت ، لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا. ومثله قولك : زيد سيد وجواد ، تريد السيادة والجواد الثابتين المستقرّين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد ونحوه كانوا قوماً عامين في بعض القراآت ، وقول السمهري العكلي :

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللِّئِيمُ فَسَامِنٌ بِهَا وَكِرَامُ النّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا «1»

[سورة هود (11) : آية 13]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13)

(1). العكلي. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهدا على أن الشحوب في لغة بنى كلاب الهزال ، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه ، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل ، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ ، وقياسه «فعيل».

أَمْ منقطعة. والضمير في افْتَراهُ لما يوحى إليك. تحداهم أوّلا بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه : اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد مِثْلِهِ بمعنى أمثاله ، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له مُفْتَرَياتٍ صفة لعشر سور. لما قالوا : افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند اللّه ، قاودهم «1» على دعواهم وأرخى معهم العنان وقال: هبوا أنى اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلىّ وأنّ الأمر كما قلتم ، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام. فإن قلت :
كيف يكون ما يأتون به مثله ، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت : معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

[سورة هود (11) : آية 14]

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

فإن قلت : ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله لَكُمْ فَاعْلَمُوا بعد قوله قُلْ؟

قلت : معناه : فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدّونهم ، وقد قال في موضع آخر : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كقوله : فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ «2»

ووجه آخر : وهو أن يكون الخطاب للمشركين ، والضمير في فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لمن استطعتم ، يعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون اللّه إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أى أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا اللّه ، من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه وَاعلموا عند ذلك أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللّه وحده ، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة ، وهذا وجه حسن مطرد. ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند اللّه وعلى التوحيد.

ومعنى فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فهل أنتم مخلصون؟

(1). قوله «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسايرهم. (ع)
(2). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 294 فراجعه إن شئت. اه مصححه.

[سورة هود (11) : الآيات 15 إلى 16]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16)

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا ، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل : هم أهل الرياء. يقال للقراء منهم : أردت أن يقال : فلان قارئ ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحمن وتصدّق : فعلت حتى يقال ، فقيل. ولمن قاتل فقتل : قاتلت حتى يقال فلان جريء ، فقد قيل : وعن أنس بن مالك : هم اليهود والنصارى ، إن أعطوا سائلا أو وصلوا رحماً ، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن. وقيل : هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأسهم لهم في الغنائم. وقرئ : يوفّ ، بالياء على أن الفعل للّه عزّ وجلّ. وتوفَّ إليهم أعمالهم بالتاء ، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن : نوفى ، بالتخفيف وإثبات الياء ، لأنّ الشرط وقع ماضياً ، كقوله : يَقُولُ لَا غائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ«1»

وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وحبط في الآخرة ما صنعوه ، أو صنيعهم ، يعنى : لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة ، إنما أرادوا به الدنيا ، وقد وفي إليهم ما أرادوا وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى كان عملهم في نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح ، والعمل الباطل لا ثواب له.

وقرئ : وبطل على الفعل. وعن عاصم : وباطلا بالنصب ، وفيه وجهان : أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون ، ومعناه : وباطلا ، أىّ باطل كانوا يعملون. وأن تكون بمعنى المصدر على : وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

[سورة هود (11) : آية 17]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17)

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ معناه : أمّن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة «2» أى لا يعقبونهم في المنزلة

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 537 فراجعه إن شئت. اه مصححه. [.....]
(2). قوله «فمن كان على بينة» عبارة النسفي : كمن كان يريد ... الخ. (ع)

ولا يقاربونهم ، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً ، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد اللّه بن سلام وغيره ، كان على بينة مِنْ رَبِّهِ أى على برهان من اللّه وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل وَيَتْلُوهُ ويتبع ذلك البرهان شاهِدٌ مِنْهُ أى شاهد يشهد بصحته ، وهو القرآن مِنْهُ من اللّه ، أو شاهد من القرآن ، فقد تقدّم ذكره

[سورة هود (11) : الآيات 18 إلى 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم الْأَشْهادُ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على اللّه بأنه اتخذ ولداً وشريكا ، ويقال أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ فوا خزياه ووا فضيحتاه. والأشهاد : جمع شاهد أو شهيد ، كأصحاب أو أشراف وَيَبْغُونَها عِوَجاً يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى ما كانوا يعجزون اللّه في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم ، وهو من كلام الأشهاد يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ وقرئ : يضعف ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له ، كأنهم لا يستطيعون السمع «1» ولعل بعض المجبرة «2» يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع «3» به على أهل العدل ، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعي. ويحتمل أن يريد بقوله وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون اللّه ، وولايتها ليست بشيء ، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء ، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ فكيف يصلحون للولاية. وقوله يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ اعتراض بوعيد خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة اللّه ، فكان خسرانهم في تجارتهم مالا خسران أعظم منه ، وهو أنهم خسروا أنفسهم وَضَلَّ عَنْهُمْ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانُوا يَفْتَرُونَ من الآلهة وشفاعتها لا جَرَمَ فسر في مكان آخر هُمُ الْأَخْسَرُونَ لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

[سورة هود (11) : آية 23]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23)

---

(1). قال محمود : «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم ... الخ» قال أحمد : أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل ، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية ، وإنما الذي ينفى الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلته حيث يقول : فيوعوع بها على أهل العدل ، يعنى الآية المذكورة. وهذه سقطة عظيمة ، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده ، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة ، وإنما تلا كتاب اللّه تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز ، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة. وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك ، واللّه الموفق.

(2). قوله «و لعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته ، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل ، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل ، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير. ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : أخبر اللّه تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فانه قال : ما كانوا يستطيعون السمع ، وهو طاعته. وما كانوا يبصرون. وأما في الآخرة فانه قال لا يَسْتَطِيعُونَ خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ. (ع)

(3). قوله «فيوعوع به» في الصحاح : الوعوعة صوت الذئب. (ع)

وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة. ومنه قولهم للشيء : الدنىء الخبيث. قال : يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ قِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ «1»

وقيل : التاء فيه بدل من الثاء.

[سورة هود (11) : آية 24]

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (24)

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع «2» وهو من اللف والطباق. وفيه معنيان : أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين ، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب ، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم ، أو الذي جمع بين البصر والسمع «3». على أن تكون الواو في وَالْأَصَمِّ وفي وَالسَّمِيعِ لعطف الصفة على الصفة ، كقوله : الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ «4»

هَلْ يَسْتَوِيانِ يعنى الفريقين مَثَلًا تشبيهاً.

[سورة هود (11) : الآيات 25 إلى 26]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26)
أى أرسلنا نوحاً بأنى لكم نذير. ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام ، وهو قوله إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ بالكسر ، فلما اتصل به الجارّ فتح كما فتح في كَأَنْ والمعنى على الكسر ،

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 543 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قال محمود : «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو ... الخ» قال أحمد : بخلافها على الوجه الأول ، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فان امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً ، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين ، وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني ، فان مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً ، ولكن في صفتين متعددتين ، والأمر في ذلك قريب ، والله أعلم.
(3). قوله «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله : والذي. (ع)
(4). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 41 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وهو قولك : إنّ زيدا كالأسد. وقرئ بالكسر على إرادة القول أَنْ لا تَعْبُدُوا بدل من إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إِلَّا اللَّهَ أو تكون «أن» مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازى لوقوع الألم فيه. فإن قلت : فإذا وصف به العذاب؟ قلت : مجازى مثله ، لأنّ الأليم في الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهارك صائم ، وجدّ جدّه.

[سورة هود (11) : آية 27]

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27)

الْمَلَأُ الأشراف من قولهم : فلان مليء بكذا ، إذا كان مطيقاً له ، وقد ملؤوا بالأمر ، لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها. أو لأنهم يتمالئون أى يتظاهرون ويتساندون ، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة «1» أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة «2» وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة ، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم : وما نرى لكم علينا من فضل. أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشر. والأراذل جمع الأرذل ، كقوله أَكابِرَ مُجْرِمِيها «أحاسنكم أخلاقاً» وقرئ : بادى الرأى ، بالهمز وغير الهمز ، بمعنى : اتبعوك أوّل الرأى أو ظاهر الرأى ، وانتصابه على الظرف ، أصله : وقت حدوث أوّل رأيهم ، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا : أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر ، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ، لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ،

(1). قوله «و المجالس أبهة» كسكرة : عظمة. (ع)

(2). قال محمود : «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة ... الخ» قال أحمد : ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأى. ولكنه ترك الهمز استثقالا ، إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز ، والمعنيان متقاربان ، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحا بمن اتبعه من وجهين ، أحدهما : أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة. والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروووا في اتباعه. ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية. وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به ، والله أعلم

ولقد زلّ عنهم أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها ، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا ، مزهدين فيها ، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها ، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله مِنْ فَضْلٍ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه.

[سورة هود (11) : الآيات 28 إلى 32]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28) وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(32)

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ على برهان مِنْ رَبِّي وشاهد منه يشهد بصحة دعواي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة ، ويجوز أن يريد بالبينة : المعجزة ، وبالرحمة : النبوّة. فإن قلت : فقوله فَعُمِّيَتْ ظاهر على الوجه الأوّل ، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت : الوجه أن يقدّر فعميت بعد البينة ، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة : ومعنى عميت خفيت. وقرئ : فعميت بمعنى أخفيت. وفي قراءة أبى : فعماها عليكم. فإن قلت : فما حقيقته؟ قلت : حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء ، لأنّ الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره ، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم ، كما لو عمى على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. فإن قلت : فما معنى قراءة أبىّ؟ قلت : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله «1» وتصميمهم ، فجعلت تلك التخلية تعمية منه ، والدليل عليه قوله أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ يعنى أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها ،

(1). قوله «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها ، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة ، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن. (ع)

وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً. ويجوز أن يكون الثاني منفصلا كقولك : أنلزمكم إياها. ونحوه فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ويجوز : فسيكفيك إياهم. وحكى عن أبى عمرو إسكان الميم. ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة ، فظنها الراوي سكونا. والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين ، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر. والضمير في قوله لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ راجع إلى قوله لهم إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ. وقرئ : وما أنا بطارد الذين آمنوا ، بالتنوين على الأصل. فإن قلت : ما معنى قوله إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ؟ قلت : معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم.

أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به «1» من بناء إيمانهم على بادىء الرأى من غير نظر وتفكر.

وما علىّ أن أشق عن قلوبهم وأ تعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون.

ونحوه وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة تَجْهَلُونَ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، من قوله : أَلا لا يَجْهَلْ أَحَدٌ عَلَيْنا «2»

أو تجهلون بلقاء ربكم. أو تجهلون أنهم خير منكم مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ من يمنعني من انتقامه إِنْ طَرَدْتُهُمْ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به ، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء أَعْلَمُ الْغَيْبَ معطوف على عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ أى لا أقول عندي خزائن الله ، ولا أقول : أنا أعلم الغيب. ومعناه : لا أقول لكم : عندي خزائن الله فأدعى فضلا

وأزرى به : قصر به ، يقال ازدرته عينه ، واقتحمته عينه.

(1). قوله «ذلك مما تقرفونهم به» أى ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح. (ع)
(2) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لعمرو بن كلثوم من معلقته ، و«ألا» استفتاحية تفيد التوكيد - و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهى. أى : لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر ، ونجهل : نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهى. وسمى جزاء الجهل جهلا مشاكلة ، أى : فنجازيه فوق فعله بنا ، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.

جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا معناه : أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته ، كقولك :

جاد فلان فأكثر وأطاب فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب المعجل.

[سورة هود (11) : الآيات 33 إلى 35]

قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ أى ليس الإتيان بالعذاب إلىّ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه إِنْ شاءَ يعنى إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم. وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنه : فأكثرت جدلنا. فإن قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ «1» قلت : قوله إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ جزاؤه ما دلّ عليه قوله لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه ، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك : إن أحسنت إلىّ أحسنت إليك إن أمكننى. فإن قلت : فما معنى قوله «2» إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ؟ قلت : إذا عرف اللّه من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه ، سمى ذلك إغواء وإضلالا ، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوى فلطف به : سمى إرشاداً وهداية. وقيل أَنْ يُغْوِيَكُمْ أن يهلككم من غوى الفصيل غوى ، إذا بشم فهلك «3». ومعناه : أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح اللّه ومواعظه وسائر ألطافه ، كيف ينفعكم نصحى؟

(1). قال محمود : «إن قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين ... الخ» قال أحمد : ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل : أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسئلة اعتراض الشرط على الشرط.
والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث. وإن أكلت ثم شربت حنث. وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر ، أى الذي يليه ، ثم جعلهما معا جزاء للشرط المتوسط ، ولذلك سر في العربية لا نطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت ، واللّه أعلم. [.....]
(2). قوله «فان قلت فما معنى ... الخ» السؤال وجوابه مبنى على مذهب المعتزلة : أن اللّه لا يخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالاغواء على ظاهره : خلق الغى - أى الضلال - في القلب. (ع)
(3). قوله «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخم. يقال : بشمت من الطعام - بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن. (ع)

فَعَلَيَّ إِجْرامِي وإجرامى بلفظ المصدر والجمع ، كقوله : واللّه يعلم إسرارهم وأسرارهم. ونحو : جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامى. والمعنى : إن صح وثبت أنى افتريته ، فعلىّ عقوبة إجرامى أى افترائى. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا علىّ «1» وَأَنَا بَرِيءٌ يعنى ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى مِمَّا تُجْرِمُونَ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلىّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

[سورة هود (11) : الآيات 36 إلى 37]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

لَنْ يُؤْمِنَ إقناط من إيمانهم ، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه ، وقد للتوقع وقد أصابت محزها فَلا تَبْتَئِسْ فلا تحزن حزن بائس مستكين. قال : مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ «2»

والمعنى : فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك ، فقد حان وقت الانتقام لك منهم بِأَعْيُنِنا في موضع الحال ، بمعنى : اصنعها محفوظا ، وحقيقته : ملتبساً بأعيننا ، كأن للّه معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب ، وأن لا يحول بينه «3» وبين عمله أحد من أعدائه. ووحينا : وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى اللّه إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ إنهم محكوم عليهم بالإغراق ، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، كقوله : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ.

(1). قوله «و تتألبوا على» أى تتجمعوا. أفاده الصحاح. (ع)
(2). لحسان ، يقال : ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول : ما يقسمه اللّه لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه ، أى مما قسمه اللّه لك. واقعد كريما غير مهان طيب الحال والشأن ، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروى : وأقعد بقطع الهمزة ، من أقعد المتعدي ، فكريما حال على الأول ، ومفعول على الثاني ، وفيه تجريد.
(3). قوله «و أن لا يحول بينه» لعله : وأن يحول. (ع)

[سورة هود (11) : الآيات 38 إلى 39]

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ حكاية حال ماضية سَخِرُوا مِنْهُ ومن عمله السفينة ، وكان يعملها في برية بهماء «1» في أبعد موضع من الماء ، وفي وقت عزّ الماء فيه عزة شديدة ، فكانوا يتضاحكون ويقولون له : يا نوح ، صرت نجاراً بعد ما كنت نبيا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ يعنى في المستقبل كَما تَسْخَرُونَ منا الساعة ، أى : نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل : إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط اللّه وعذابه ، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم ، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر ، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق. وروى أنّ نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين ، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون ، فحمل في البطن الأسفل : الوحوش والسباع والهوام ، وفي البطن الأوسط : الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء ، وعن الحسن : كان طولها ألفاً ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة. وقيل : إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال : أتدرون من هذا؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم. قال : هذا كعب بن حام. قال : فضرب الكثيب «2» بعصاه فقال : قم بإذن اللّه ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام : هكذا أهلكت؟ قال لا ، مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال : حدّثنا عن سفينة نوح. قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة للدواب والوحوش ، وطبقة للإنس ، وطبقة للطير.

ثم قال له : عد بإذن اللّه كما كنت ، فعاد تراباً مَنْ يَأْتِيهِ في محل النصب بتعلمون. أى : فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه ، ويعنى به إياهم ، ويريد بالعذاب : عذاب الدنيا وهو الغرق وَيَحِلُّ عَلَيْهِ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه عَذابٌ مُقِيمٌ وهو عذاب الآخرة.

(1). قوله «برية بهماء» أى لا يهتدى فيها الطريق. ويقال : الممر أبهم ، وكذا الرجل الشجاع أبهم ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «قال فضرب الكثيب» أى راوى هذه القصة ، لكنه غير معلوم. (ع)

[سورة هود (11) : الآيات 40 إلى 41]

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41)

حَتَّى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن قلت : وقعت غاية لما ذا؟ قلت : لقوله : ويصنع الفلك ، أى : وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت : «فإذا اتصلت «حتى» بيصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام؟ قلت : هو حال من يصنع ، كأنه قال : يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه. فإن قلت : فما جواب كلما؟

قلت : أنت بين أمرين : إما أن تجعل سَخِرُوا جواباً وقالَ استئنافا ، على تقدير سؤال سائل. أو تجعل سَخِرُوا بدلا من مَرَّ أو صفة لملأ وقالَ جوابا. وَأَهْلَكَ عطف على اثنين ، وكذلك وَمَنْ آمَنَ يعنى : واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر ، لا لتقديره عليه «1» وإرادته به - تعالى اللّه عن ذلك - قال الضحاك : أراد ابنه وامرأته إِلَّا قَلِيلٌ روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «كانوا ثمانية : نوح وأهله ، وبنوه الثلاثة ، ونساؤهم» «2» وعن محمد بن إسحاق : كانوا عشرة : خمسة رجال وخمس نسوة. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة ، وأولاد نوح : سام وحام ويافث ، ونساؤهم. فالجميع ثمانية وسبعون : نصفهم رجال ونصفهم نساء. ويجوز أن يكون كلاما واحداً وكلامين ، فالكلام الواحد : أن يتصل بِسْمِ اللَّهِ باركبوا حالا من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين اللّه. أو قائلين بسم اللّه وقت إجرائها ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم خفوق النجم ، ومقدم الحاج.

ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء ، وانتصابهما بما في بِسْمِ اللَّهِ من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول.

(1). قوله «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته ، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والارادة ولو شراً. (ع)
(2). لم أره مرفوعا. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال : ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم. فجميعهم ثمانية.

والكلامان : أن يكون بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها جملة من مبتدإ وخبر مقتضبة ، أى بسم اللّه إجراؤها وإرساؤها. يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم اللّه فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم اللّه فرست. ويجوز أن يقحم الاسم «1» ، كقوله : ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا «2»

ويراد : باللّه إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره. وقرئ مَجْراها وَمُرْساها بفتح الميم ، من جرى ورسى ، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين. وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها ، بلفظ اسم الفاعل ، مجرورى المحل ، صفتين للّه. فإن قلت : ما معنى قولك : جملة مقتضية؟ قلت : معناه أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم اللّه أو بأمره وقدرته. ويحتمل أن تكون غير مقتضية بأن تكون في موضع الحال كقوله : وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا «3»

فلا تكون كلاما برأسه ، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل ، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك ، كأنه قيل :

(1). قال محمود : «و يجوز أن يقحم الاسم ... الخ» قال أحمد : نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحما ، واللّه أعلم.
(2) تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فان حان يوما أن يموت أبو كما فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه أهان ولا خان الأمين ولا غدر
إلى الحول تم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
للبيد بن ربيعة العامري ، يوصى ابنتيه أسماء ويسرة. وتمنى : ماض ، أو مضارع حذف منه إحدى التاءين ، والاستفهام إنكارى وهو كناية عن تحتم الموت. ويوما : ظرف لحان. والمراد به : مطلق الزمن. وأن يموت : فاعل. وخمش وجهه خمشا : جرحه بأظفاره ، أى : لا تبالغا في الجزع حتى تفعلا ذلك ، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة ، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد

(3) وجاءونا بهم سكر علينا فأجلى القوم والسكران صاحى
السكر والسكر : كالبعد والبعد ، و«بهم سكر» جملة حالية. و«علينا» متعلق بسكر : أى جاءنا القوم غضابا علينا ، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه. والحال أن السكران منهم مفلق من سكره. ويروى «فأجلى اليوم» أى زال ومضى ، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم : أى لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره ، لعلمه أنه ليس أهلا لذلك ، فأجلى هنا لازم.

اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم اللّه بمعنى التقدير ، كقوله تعالى ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

[سورة هود (11) : الآيات 42 إلى 43]

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

فإن قلت : بم اتصل قوله وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ؟ قلت : بمحذوف دل عليه ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون : بسم اللّه ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ أى تجرى وهم فيها فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها. فإن قلت : ما الموج : ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره «1» وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض ، وكانت الفلك تجرى في جوف الماء كما تسبح السمكة ، فما معنى جريها في الموج؟

قلت : كان ذلك قبل التطبيق ، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه : سآوى إلى جبل يعصمني من الماء. قيل : كان اسم ابنه : كنعان. وقيل : يام. وقرأ على رضى اللّه عنه : ابنها ، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير : ابنه ، بفتح الهاء ، يريدان ابنها ، فاكتفيا بالفتحة عن الألف ، وبه ينصر مذهب الحسن. قال قتادة : سألته فقال : واللّه ما كان ابنه ، فقلت : إنّ اللّه حكى عنه إن ابني من أهلى ، وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه ، فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ، واستدل بقوله مِنْ أَهْلِي ولم يقل : منى ، ولنسبته إلى أمّه وجهان ، أحدهما : أن يكون ربيباً له ، كعمر بن أبى سلمة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن يكون لغير رشدة ، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام. وقرأ السدى : ونادى نوح ابناه ، على الندبة والترثى. أى : قال يا ابناه. والمعزل : مفعل ، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده ، يعنى : وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين. وقيل : كان في معزل عن دين أبيه «يا نبىّ» قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك : يا بنيا ، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين ،

(1). قوله «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جداً وارتفع. ومنه يقال : بحر زاخر.

لأنّ الراء بعدهما ساكنة إِلَّا مَنْ رَحِمَ إلا الراحم وهو اللّه تعالى «1» ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم اللّه. أى إلا مكان من رحم اللّه من المؤمنين ، وكان لهم غفورا رحيما في قوله إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له : لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم اللّه ونجاهم يعنى السفينة. وقيل لا عاصم ، بمعنى : لا ذا عصمة إلا من رحمه اللّه ، كقوله ماءٍ دافِقٍ وعِيشَةٍ راضِيَةٍ وقيل : إِلَّا مَنْ رَحِمَ استثناء منقطع ، كأنه قيل : ولكن من رحمه اللّه فهو المعصوم ، كقوله ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وقرئ إِلَّا مَنْ رَحِمَ على البناء للمفعول.

[سورة هود (11) : آية 44]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

نداء الأرض والسماء بما ينادي به الحيوان المميز «2» على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله يا أَرْضُ ، وَيا سَماءُ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابْلَعِي ماءَكِ وأَقْلِعِي من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه ، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته

(1). قال محمود : «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم ... الخ» قال أحمد : والاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس. وزاد الزمخشري خامسا ، وهو لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمارد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز ، وبعضها أقرب من بعض ، والله أعلم. [.....]

(2). قال محمود : «نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل ... الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحيانا ، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحده فيها ، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ الآية.
والمراد : وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين. ومنه :
أنا أبو النجم وشعري شعري
ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة ، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة :
لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا
يعنى لا تمنح نفسك فإنك المنفرد بالممادح ، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها.

على الفور من غير ريث ، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولا لا حبس ولا إبطاء. والبلع : عبارة عن النشف. والإقلاع : الإمساك. يقال : أقلع المطر وأقلعت الحمى وَغِيضَ الْماءُ من غاضه إذا نقصه وَقُضِيَ الْأَمْرُ وأنجز ما وعد الله نوحا من هلاك قومه وَاسْتَوَتْ واستقرّت السفينة عَلَى الْجُودِيِّ وهو جبل بالموصل وَقِيلَ بُعْداً يقال بعد بعدا وبعدا ، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤسهم ، لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله ابْلَعِي وأَقْلِعِي وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن ، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور. وعن قتادة : استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب ، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، واستقرّت بهم على الجودي شهراً ، وهبط بهم يوم عاشوراء. وروى أنها مرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد أعتقه الله من الغرق. وروى أنّ نوحا صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

[سورة هود (11) : الآيات 45 إلى 46]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46)

نداؤه ربه : دعاؤه له ، وهو قوله رَبِّ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت : فإذا كان النداء هو قوله رَبِّ فكيف عطف فَقالَ رَبِّ على نادى بالفاء؟

قلت : أريد بالنداء إرادة النداء ، ولو أريد النداء نفسه لجاء ، كما جاء قوله إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا قالَ رَبِّ بغير فاء إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي أى بعض أهلى ، لأنه كان ابنه من صلبه ، أو كان ربيبا له فهو بعض أهله وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلى ، فما بال ولدى؟ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ أى أعلم الحكام وأعدلهم «1» ، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ،

(1). قال محمود : «قال أى أعلم الحكام وأعدلهم ، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم ... الخ» قال أحمد:
ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضى القضاة ، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى :

أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأقضاهم في الوصف ، وأن يزاد عليهم ، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب ، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك ، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضى القضاة : أى هو الذي يقضى بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه ، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضى قضاة زمانه أو إقليمه. وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم على» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم ، فلا حرج إن شاء اللّه أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم : قاضى القضاة ، وأقضى القضاة ، أى قضاة زمانه وبلده ، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب.

ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة ، على أن يبنى من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع ، وحائض وطالق على مذهب الخليل إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأنّ نسيبك في دينك ومعتقَدك من الأباعد في المنصب «1» وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملا غير صالح ، مبالغة في ذمّه ، كقولها : فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ «2»

وقيل : الضمير لنداء نوح ، أى : إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك - فإن قلت : فهلا قيل : إنه عمل فاسد «3»؟ قلت : لما نفاه عن أهله ، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفي ، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم ، لا لأنهم أهلك وأقاربك. وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك ، كقوله كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وقرئ : عمل غير صالح أى عمل عملا غير صالح. وقرئ : فلا تسئلنّ ، بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء ، يعنى فلا تلتمس منى ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ، حتى تقف على كنهه. وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

(1). قوله «من الأباعد في المنصب» لعله تحريف ، وأصله في النسب. (ع)
(2). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 218 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قال محمود : «فهلا قيل : إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفى عنه ... الخ» قال أحمد. ولهذا المعنى واللّه أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم ، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل ، خصّ أهله بالإنذار إيذانا بذلك ، واللّه أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي صلى اللّه عليه وسلم وقال : إنى لا أملك لكم من اللّه شيئاً ، أو قال ذلك ولكل واحد منهم بخصوصه.

فإن قلت : لم سمى نداؤه سؤالا ولا سؤال فيه؟ قلت : قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به ، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين. فإن قلت : قد وعده أن ينجى أهله ، وما كان عنده «1» أن ابنه ليس منهم ديناً ، فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر ، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف اللّه حكيما لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد ، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب ، فلم زجر وسمى سؤاله جهلا؟ قلت : إن اللّه عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم ، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح ، وأن كلهم ليسوا بناجين ، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم ، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه.

[سورة هود (11) : آية 47]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47)

أَنْ أَسْئَلَكَ من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته ، تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ما فرط منى من ذلك وَتَرْحَمْنِي بالتوبة علىّ أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ أعمالا.

(1). قال محمود : «فان قلت قد وعده اللّه أن ينجي أهله وما كان عنده ... الخ» قال أحمد : وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحا عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك ، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري ، ونحن نوضح الحق في الآية منزلا على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول : لما وعد نوح أولا تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفا لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن ، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين ، فسأل اللّه فيه بناء على ذلك ، فتبين له أنه في علمه من المستثنين ، وأنه هو لا علم له بذلك ، فلذلك سأل فيه ، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً ، فان نوحا عليه السلام لا يكلفه اللّه علما استأثر به غيبا. وأما قوله إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ فالمراد منه

[سورة هود (11) : آية 48]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48)
وقرئ : يا نوح اهبطْ ، بضم الباء بِسَلامٍ مِنَّا مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرّماً وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ ومباركا عليك ، والبركات الخيرات النامية. وقرئ : وبركة ، على التوحيد وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ يحتمل أن تكون من للبيان. فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، لأنهم كانوا جماعات. أو قيل لهم أمم ، لأنّ الأمم تتشعب منهم ، وأن تكون لإبداء الغاية أى : على أمم ناشئة ممن معك ، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه. وقوله وَأُمَمٌ رفع بالابتداء. وسَنُمَتِّعُهُمْ صفة ، والخبر محذوف تقديره : وممن معك أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأنّ قوله مِمَّنْ مَعَكَ يدل عليه. والمعنى : أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك ، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار ، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء ، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة. وعن كعب بن محمد القرظي : دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر.

وعن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا ، منهم من رحم ومنهم من عذب.

وقيل : المراد بالأمم الممتعة : قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

[سورة هود (11) : آية 49]

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) تِلْكَ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. ومحلها الرفع على الابتداء ، والجمل بعدها أخبار ، أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك ، مجهولة عندك وعند قومك مِنْ قَبْلِ هذا من قبل إيحائى إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي. أو من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ على تبليغ الرسالة وأذى قومك ، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه إِنَّ الْعاقِبَةَ في الفوز والنصر والغلبة لِلْمُتَّقِينَ. وقوله وَلا قَوْمُكَ معناه : إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه ، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

[سورة هود (11) : الآيات 50 إلى 52]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)

أَخاهُمْ واحداً منهم ، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا. وهُوداً عطف بيان. وغَيْرُهُ بالرفع : صفة على محل الجار والمجرور. وقرئ : غيره ، بالجرّ صفة على اللفظ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول ، لأنّ شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع أَفَلا تَعْقِلُونَ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله. وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ، قيل اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ آمنوا به ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ من عبادة غيره ، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان ، والمدرار : الكثير الدرور ، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوّة ، لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، حرّاصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين «1» بما أوتوا من شدّة القوّة والبطش والبأس والنجدة ، مستحرزين بها من العدوّ ، مهيبين في كل ناحية. وقيل : أراد القوّة في المال.

وقيل : القوّة على النكاح وقيل : حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال : إنى رجل ذو مال ولا يولد لي ، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً ، فقال : عليك بالاستغفار ، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم

وَلا تَتَوَلَّوْا ولا تعرضوا عنى وعما أدعوكم إليه وأُرغبكم فيه مُجْرِمِينَ مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

[سورة هود (11) : آية 53]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)

(1). قوله «و كانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح : الدل قريب من الهدى ، وهما من السكينة والوقار. (ع)

ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ كذب منهم وجحود ، كما قالت قريش لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لولا أُنزل عليه آية من ربه، مع فوت آياته الحصر عَنْ قَوْلِكَ حال من الضمير في تاركي آلهتنا ، كأنه قيل : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه ، إقناطاً له من الإجابة.

[سورة هود (11) : الآيات 54 إلى 55]

إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55)

اعْتَراكَ مفعول نقول ، وإلا لغو. والمعنى : ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، أى خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدّك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين «1». وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلا وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك. وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنونا والمنيب إلى ربه مخبلا ، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادّة ، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض ، وضب من الزندقة «2» أراد أن يطلع رأسه.

وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت «3» ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم ، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشا إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة اللّه وشهادة العباد ، فيقول الرجل : اللّه شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله. فإن قلت : هلا قيل : إنى أشهد اللّه وأشهدكم؟ «4» قلت : لأنّ إشهاد اللّه على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ،

(1). قوله «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة. (ع)
(2). قوله «و ضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب : واحد ضباب النخل ، وهو طلعه. (ع)
(3). قوله «لا يبالون بالبهت» رمى الشخص بما ليس فيه. (ع)
(4). قال محمود : «إن قلت هلا قيل أشهد اللّه وأشهدكم ... الخ» قال أحمد : وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الاخبار بوقوع الاشهاد منه ، فلما كان إشهاده للّه واقعا محققا عبر عنه بصيغة الخبر ، لأنه إشهاد صحيح ثابت ، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به ، وهو مراده في هذا المقام معهم. ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة ، والغرض إقامة الحجة عليهم ، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر ، التمييز بين خطابه للّه تعالى وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر ، واللّه الموفق الصواب.

وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد على أنى لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ من إشراككم آلهة من دونه ، أو مما تشركونه من آلهة من دونه ، أى أنتم تجعلونها شركاء له ، ولم يجعلها هو شركاء. ولم ينزل بذلك سلطانا فَكِيدُونِي جَمِيعاً أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون ، من غير إنظار ، فإنى لا أبالى بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم علىّ

[سورة هود (11) : الآيات 56 إلى 57]

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(57)
ولما ذكر توكله على اللّه وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه ، والأخذ بنواصيها ، تمثيل لذلك إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به فَإِنْ تَوَلَّوْا فإن تتولوا. فإن قلت : الإبلاغ كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلت : معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسالات به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول وَيَسْتَخْلِفُ كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم اللّه ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم وَلا تَضُرُّونَهُ بتوليكم شَيْئاً من ضرر قط ، لأنه لا يجوز عليه المضارّ والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم. وفي قراءة عبد اللّه : ويستخلف ، بالجزم.

وكذلك : ولا تضروه ، عطفاً على محل فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ والمعنى : إن يتولوا يعذرني ويستخلف قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى رقيب عليه مهيمن ، فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضارّ ، لم يضر مثله مثلكم.

[سورة هود (11) : آية 58]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58)

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قيل : كانوا أربعة آلاف. فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية؟

قلت : ذكر أولا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ على معنى : وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ ، وذلك أنّ اللّه عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً. وقيل : أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ. وقوله : برحمة منا ، يريد : بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

[سورة هود (11) : الآيات 59 إلى 60]

وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

وَتِلْكَ عادٌ إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل اللّه ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل.

ومعنى اتباع أمرهم : طاعتهم. ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب اللّه. وألا وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم ، تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم.

فإن قلت : بُعْداً دعاء بالهلاك ، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له : ألا ترى إلى قوله : إِخْوَتِى لَا تَبْعَدُوا أَبَداً وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا «1»

(1) إخوتى لا تبعدوا أبدا وبلى والله قد بعدوا
ما أمرّ العيش بعدكم كل عيش بعدكم نكد
ليت شعري كيف شربكم إن شربى بعدكم ثمد

لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. وتقول العرب : بعد بالضم في ضد القرب ، وبالكسر في الهلاك ، ومضارع الأول مضموم ، ومضارع الثاني مفتوح. وما في البيت منه. وما أمر : تعجب ، وشبهت العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكنية ، وإثبات المرارة تخييل ، أو استعارتها للنقص على طريق التصريحية. والنكد :
العسر الضيق المنغص. والثمد : الماء القليل الذي لا مادة له فينقطع سريعاً. ورجل مثمود ، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ما عنده. والمعنى : أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل ، وعبرت بذلك لمشاكلة ما قبله.
ويروى لها بعد البيت الأول :
لو تملتهم عشيرتهم لاقتناء العز أو ولدوا
هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذي أجد
كل ما حي وإن أمروا وارد والحوض الذي وردوا
ومعنى تملتهم : عاشوا معهم مليا من الزمان ، وأقحمت «من» مع إغباء «بعض» عنها ، للدلالة على تبغيض البغض.
و«ما» مقحمة ، بنى كل حى مبالغة في العموم. وأمروا بالكسر : كثروا. والحوض : تمثيل للموت.

قَوْمِ هُودٍ عطف بيان لعاد : فإن قلت : ما الفائدة في هذا البيان «1» والبيان حاصل بدونه؟

قلت : الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسما ، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه ، ولأنّ عاداً عادان : الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم.

[سورة هود (11) : الآيات 61 إلى 68]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68)

(1). قال محمود : «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد ... الخ» قال أحمد :
فيه أيضا فائدتان جليلتان ، إحداهما : النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم ، وكأنه قيل : عاد قوم هود الذي كذبوه ، والأخرى تناسب الآي بذلك ، فان قبلها وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وقبل ذلك حفيظ وغليظ ، وغير ذلك مما هو على وزن فعيل المناسب لفعول في القوافي ، والله أعلم.

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره. وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها وأمركم بالعمارة ، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه ، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار ، وعمروا الأعمار الطوال ، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا ، فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم ، فأوحى إليه : إنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي. وعن معاوية بن أبى سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره ، فقيل له ، فقال : ما حملني عليه إلا قول القائل : لَيْسَ الفَتَى بِفَتَيً لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الأَرْضِ آثَارُ «1»

وقيل : استعمركم من العمر ، نحو استبقاكم من البقاء ، وقد جعل من العمرى. وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون استعمر في معنى أعمر ، كقولك استهلكه في معنى أهلكه ، ومعناه : أعمركم فيها دياركم ، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم. والثاني أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها ، لأنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده فكأنما أعمره إياها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره قَرِيبٌ دانى الرحمة سهل المطلب مُجِيبٌ لمن دعاه وسأله فِينا فيما بيننا مَرْجُوًّا كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك. وعن ابن عباس : فاضلا خيرا نقدّمك على جميعنا. وقيل : كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه يَعْبُدُ آباؤُنا حكاية حال ماضية مُرِيبٍ من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين. أو من «أراب الرجل» إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازى. قيل إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة ،

(1). قوله «بفتى» خبر ليس. و«لا يستضاء به» صفته. ويجوز أنه حال من الفتى الأول ، شبهه في حسن الرأى وهداية المستشير بسراج منير. ويمكن أن شبهه بكوكب في السماء ، ليقابل الأرض بعده. والجامع ما مر. ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر ، كما

لأنّ خطابه للجاحدين ، فكأنه قال : قدّروا أنى على بينة من ربى ، وأنى نبىّ على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى في أوامره ، فمن يمنعني من عذاب اللّه؟ فَما تَزِيدُونَنِي إذن حينئذ «1» غَيْرَ تَخْسِيرٍ يعنى تخسرون أعمالى وتبطلونها. أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملوننى عليه غير أن أخسركم ، أى أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون آيَةً نصب على الحال قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. فإن قلت : فبم يتعلق لَكُمْ قلت : بآية حالا منها متقدّمة ، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها ، فلما تقدمت انتصبت على الحال عَذابٌ قَرِيبٌ عاجل لا يستأجر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً ، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم تَمَتَّعُوا استمتعوا بالعيش فِي دارِكُمْ في بلدكم. وتسمى البلاد الديار ، لأنه يدار فيها أى يتصرف. يقال : ديار بكر ، لبلادهم. وتقول العرب الّذين حوالى مكة : نحن من عرب الدار ، يريدون من عرب البلد. وقيل : في دار الدنيا. وقيل : عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت غَيْرُ مَكْذُوبٍ غير مكذوب فيه ، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به ، كقولك : يوم مشهود ، من قوله : وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ. «2» ....
أو على المجاز ، كأنه قيل للوعد : نفى بك ، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب. أو وعد غير كذب ، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول ، وكالمصدوقة بمعنى الصدق وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ ، وهو غير متمكن ، كقوله : عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبَا «3»

(1). قوله «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة. (ع)
(2) ويوم شهدناه سليما وعامرا قليل سوى الطعن النهال نوافله
يقول : ورب يوم شهدنا فيه ، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل ، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين : الأول الضمير ، والثاني : سليما ، أى قبيلتيهما «قليل» صفة ليوم. و«نوافله» فاعل به ، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعى حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا ينالون من قومه إلا الطعن ، تهكما بهم ، فالاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع.
ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته ، فهو متعدد أيضا. والنهال : جمع ناهل ، أى ريان أو عطشان على التشبيه هنا ، فهو من الأضداد ، ووصف الطعن بأنه ناهل مجاز عقلى ، لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس.
والمعنى : أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.
(3) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما أصح والشيب وازع
النابغة الذبياني ، وبنى حين على الفتح لاضافته إلى مبنى ، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل ، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلى. والمعنى : عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا ، أى الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله «فقلت» بيان العتاب ، أى : إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا ، والحال أن الشيب زاجرا لي عن موجب العتاب ، والاستفهام توبيخي : أى لا ينبغي ذلك ، ووزعته فاتزع : كففته فامتنع ، فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج ، وأوزعنى : ألهمنى ما يصلح شأنى.

فإن قلت : علام عطف؟ قلت : على نجينا ، لأنّ تقديره ونجيناهم من خزى يومئذ ، كما قال وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ على : وكانت التنجية من خزى يومئذ ، أى من ذله ومهانته وفضيحته ، ولا خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب اللّه وانتقامه. ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة ، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة. وقرئ أَلا إِنَّ ثَمُودَ ولِثَمُودَ كلاهما بالصرف وامتناعه ، فالصرف للذهاب إلى الحىّ أو الأب الأكبر ، ومنعه للتعريف والتأنيث ، بمعنى القبيلة.

[سورة هود (11) : الآيات 69 إلى 73]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

رُسُلُنا يريد الملائكة. عن ابن عباس : جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه. وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل : كانوا تسعة. وعن السدى : أحد عشر بِالْبُشْرى هي البشارة بالولد. وقيل : بهلاك قوم لوط ، والظاهر الولد سَلاماً سلمنا عليك سلاما سَلامٌ أمركم سلام. وقرئ : فقالوا سلما قال سلم ، بمعنى السلام. وقيل : سلم وسلام ، كحرم وحرام ، وأنشد : مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيه سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بِالبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ «1»

فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ فما لبث في المجيء به ، بل عجل فيه. أو فما لبث مجيئه. والعجل : ولد البقرة ، ويسعى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة ، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام،

(1). لذي الرمة غيلان بن عقبة ، يقول : مررنا بديار المحبوبة ميّ ، فقلنا إيه ، أى حدثى واستأنسى ، فأسرنا سلم ، أى سلامة وأنس ، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة ، كما لمع الغمام بلمعان البرق. وغاب البرق بسرعة.
واكتل اكتلالا : لمع لمعانا واللوائح الظواهر : صفة الغمام ، لتعدده معنى.

البقر حَنِيذٍ مشوىّ بالرضف «1» في أخدود. وقيل حَنِيذٍ يقطر دسمه ، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقا ، ويدل عليه بِعِجْلٍ سَمِينٍ. يقال : نكره وأنكره واستنكره ، ومنكور قليل في كلامهم ، وكذلك : أنا أنكرك ، ولكن منكر ومستنكر ، وأنكرك. قال الأعشى :

وَأَنْكَرَتْنِى وَمَا كَانَ الَّذِى نَكِرَتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إِلّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا «2»

قيل : كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها «3». وقيل : كانت عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه ، والظاهر أنه أحسّ بأنهم ملائكة ، ونكرهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره اللّه عليه أو لتعذيب قومه ، ألا ترى إلى قولهم لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيهم أرسلوا وَأَوْجَسَ فأضمر «4». وإنما قالوا لا تَخَفْ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه.

أو عرفوه بتعريف اللّه. أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف ، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ قيل : كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم. وقيل : كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد اللّه : وامرأته قائمة وهو قاعد فَضَحِكَتْ سروراً بزوال الخيفة «5» أو بهلاك أهل الخبائث. أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلهم العذاب.

(1). قوله «مشوى بالرضف» أى الحجارة المحماة ، كما في الصحاح. (ع)
(2). للأعشى. ويقال : أنكره ونكره : جهله ونفر منه : أى جهلتنى المحبوبة ، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل : إن أبا عبيدة سمع بشارا ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول : إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه ، فتعجب أبو عبيدة من فطنته ، كأنه صح عنده إنكاره.
(3). قال محمود : «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها ... الخ» قال أحمد :
وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاءوا. الثاني : في الحجر قوله وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ إلى قوله لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ فلم يطمئنوا بإعلامه أنهم ملائكة ، ولكن بأنهم يبشرون له ، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه. الثالث : في الذاريات فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ فهو أيضا كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فأول ما أعلموا به أنهم رسل ، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم ، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطا لم يعلم ذلك ، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.
(4). عاد كلامه. قال : «و معنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف ... الخ» قال أحمد :
وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري واللّه أعلم ، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله باخباره إياهم بذلك ، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ والقصة واحدة ، واللّه الموفق للصواب.
(5). عاد كلامه. قال : «و ضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة ... الخ» قال أحمد : ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت ، إذ لا عجب في حمل من تحيض ، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل ، واللّه الموفق.

وقيل : كانت تقول لإبراهيم : اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإنى أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب ، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت. وقيل ضحكت فحاضت.

وقرأ محمد بن زياد الأعرابى فَضَحِكَتْ بفتح الحاء يَعْقُوبَ رفع بالابتداء ، كأنه قيل : ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود ، أى من بعده. وقيل الوراء : ولد الولد ، وعن الشعبي أنه قيل له : أهذا ابنك؟ فقال نعم ، من الوراء ، وكان ولد ولده. وقرئ يَعْقُوبَ بالنصب ، كأنه قيل. ووهبنا لها إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، على طريقة قوله :

... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ «1» ...

الألف في يا وَيْلَتى مبدلة من ياء الإضافة ، وكذلك في «يا لهفاً» و«يا عجباً» وقرأ الحسن : يا ويلتى ، بالياء على الأصل. وشَيْخاً نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة. وقرئ شيخ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا بعلى هو شيخ. أو بعلى : بدل من المبتدأ ، وشيخ : خبر ، أو يكونان معاً خبرين. قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة ، ولإبراهيم مائة وعشرون سنة إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 381 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «و لا يزدهيها» في الصحاح : زهاه وازدهاه : استخفه وتهاون به. (ع)

[سورة هود (11) : الآيات 74 إلى 75]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

الرَّوْعُ ما أوجس من الخيفة. حين نكر أضيافه. والمعنى : أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف ومليء سرورا بسبب البشرى بدل الغم ، فرغ للمجادلة ، فإن قلت : أين جواب لما؟

قلت : هو محذوف كما حذف قوله فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا وقوله يُجادِلُنا كلام مستأنف دال على الجواب. وتقديره: اجترأ على خطابنا ، أو فطن لمجادلتنا ، أو قال : كيت وكيت : ثم ابتدأ فقال يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ وقيل في يُجادِلُنا : هو جواب لما ، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال : وقيل : إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي ، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال ، وقيل : معناه أخذ يجادلنا ، وأقبل يجادلنا. والمعنى : يجادل رسلنا. ومجادلته إياهم أنهم قالوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ فقال : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا : لا. قال : فأربعون؟ قالوا : لا. قال : فثلاثون؟ قالوا : لا.

حتى بلغ العشرة. قالوا : لا. قال : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا : لا.

فعند ذلك قال إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ. فِي قَوْمِ لُوطٍ في معناهم. وعن ابن عباس : قالوا له : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وعن قتادة : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير «1». وقيل : كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ غير عجول على كل من أساء إليه أَوَّاهٌ كثير التأوّه من الذنوب مُنِيبٌ تائب راجع إلى اللّه بما يحب ويرضى. وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة ، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

[سورة هود (11) : آية 76]

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

يا إِبْراهِيمُ على إرادة القول : أى قالت له الملائكة أَعْرِضْ عَنْ هذا الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ، فلا فائدة فيه إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لا محالة ، لا مردّ له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(1). قوله «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون. (ع)

[سورة هود (11) : آية 77]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه «1» لأنه حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم. روى أنّ اللّه تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا : وما أمرهم؟ قال : أشهد باللّه إنها لشر قرية في الأرض عملا ، يقول ذلك أربع مرات ، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها. يقال : يوم عصيب ، وعصبصب ، إذا كان شديداً من قولك : عصبه ، إذا شدّه.

[سورة هود (11) : الآيات 78 إلى 79]

وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ(79)

يُهْرَعُونَ يسرعون كأنما يدفعون دفعاً وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء. وقيل معناه : وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك هؤُلاءِ بَناتِي أراد أن يقي أضيافه ببناته ، وذلك غاية الكرم ، وأراد : هؤلاء بناتي فتزوّجوهنّ وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً ، كما زوّج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران «2»

(1). قوله «و ضيق ذرعه » في الصحاح : يقال ضقت بالأمر ذرعا ، إذا لم تطقه ولم تقو عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدي إليه فلم تنله. (ع)

(2). قلت : قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش وإنما هو أبو العاص بن الربيع ، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو ، وليس له في هذه القضية مدخل ، وأما قصة تزويج أبى العاص بن الربيع بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وكذا عتبة بن أبى لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال : كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها. وذلك قبل أن ينزل عليه فلما أكرم اللّه نبيه صلى اللّه عليه وسلم بالنبوة آمنت خديجة وبناته وثبت أبو العاص على شركه. قال : وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبى لهب بنته رقية. فلما دعا قريشا إلى أمرين قال بعضهم لبعض : قد فرغتم محمدا من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبى العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب. ففارق رقية. وزوجوه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعده عثمان بن عفان. فذكر قصة أبى العاص وأسره ببدر» وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبى لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين. [.....]

وقيل كان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما ابنتيه : وقرأ ابن مروان : هنّ أطهر لكم ، بالنصب ، وضعفه سيبويه وقال : احتبى ابن مروان في لحنه. وعن أبى عمرو بن العلاء : من قرأ هُنَّ أَطْهَرُ بالنصب فقد تربع في لحنه ، وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل ، كقوله هذا بَعْلِي شَيْخاً أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر ، كأنه قيل : خذوا هؤلاء ، وبناتي : بدل ، ويعمل هذا المضمر في الحال ، وهُنَّ فصل ، وهذا لا يجوز لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأى الجملة ، ولا يقع بين الحال وذى الحال ، وقد خرّج له وجه لا يكون هُنَّ فيه فصلا ، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ وبَناتِي هُنَّ جملة في موضع خبر المبتدإ ، كقولك : هذا أخى هو ، ويكون أَطْهَرُ حالا فَاتَّقُوا اللَّهَ بإيثارهنّ عليهم وَلا تُخْزُونِ ولا تهينونى ولا تفضحوني ، من الخزي. أو ولا تخجلوني ، من الخزاية وهي الحياء فِي ضَيْفِي في حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل ، والكف عن السوء. وقرئ : ولا تخزون ، بطرح الياء. ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدّة امتعاضه «1» مما أوردوا عليه ، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ، ومن ثمّ قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مستشهدين بعلمه ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ لأنك لا ترى مناكحتنا ، وما هو إلا عرض سابرىّ «2». وقيل : لما اتخذوا إتيان الذكران مذهبا ودينا لتواطؤهم عليه ، كان عندهم أنه هو الحق ، وأنّ نكاح الإناث من الباطل ، فلذلك قالوا : ما لنا في بناتك من حق قط ، لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه. ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة ، والغرض نفى الشهوة لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

[سورة هود (11) : آية 80]

قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

(1). قوله «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر : غضب منه وشق عليه ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «و ما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين : نوع من الثياب رقيق ، منسوب إلى سابور من الأكاسرة ، كذا بهامش. وفي الصحاح : عرضت له الشيء. أى أظهرته له وأبرزته إليه. يقال : عرضت له ثوبا مكان حقه. وفي المثل : عرض سابري ، لأنه ثوب جيد يشترى بأول عرض ولا يبالغ فيه. (ع)

جواب «لو» محذوف ، كقوله تعالى وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ يعنى لو أنّ لي بكم قوّة لفعلت بكم وصنعت. يقال : مالى به قوّة ، وما لي به طاقة. ونحوه لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ومالى به يدان ، لأنه في معنى لا اضطلع به ولا أستقلّ به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي ، أو أويت إلى قوىّ أستند إليه وأ تمنع به فيحمينى منكم. فشبه القوىّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته ، ولذلك قالت الملائكة - وقد وجدت عليه - : إنّ ركنك لشديد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخى لوطاً ، كان يأوى إلى ركن شديد» «1» وقرئ «أو آوى» بالنصب بإضمار «أن» كأنه قيل : لو أن لي بكم قوّة أو أويا ، كقولها : لَلْبسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِى «2»

وقرئ «إلى ركن» بضمتين. وروى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادّهم ما حكى الله عنه ويجادلهم ، فتسوّروا الجدار.

[سورة هود (11) : آية 81]

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب قالوا : يا لوط ، إن ركنك لشديد إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم ، كما قال الله تعالى فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء النجاء ، فإن في بيت لوط قوماً سحرة لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ جملة موضحة للتي قبلها ، لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره.

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة في أثناء حديث.
(2) لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف
لميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية ، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال : أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره ، وكنت قبله في العباءة ، فقالت ذلك ، أى : لبيت من الشعر تضطرب الرياح فيه ، أحب إلى من قصر عال مرتفع ، من أناف إنافة : ارتفع. ومن العرب من يقول : أرياح في جمع ريح ، خوف الاشتباه بجمع روح ، كأعياد في عيد ، خوف الاشتباه بالعود. ولبس : عطف على ما قبله ، ورواية «للبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وأن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عيني مع ذلك. وسروري ، أحب إلى من لبس الشفوف وسخونة عينى وحزنى. والشفوف - جمع شف - : الرقيق من الثياب ، كأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوفا. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا : نحله.

قرئ : فَأَسْرِ بالقطع والوصل. وإِلَّا امْرَأَتَكَ بالرفع والنصب. وروى أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم؟ قالوا : الصبح. فقال : أريد أسرع من ذلك. فقالوا أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ وقرئ «الصبح» بضمتين. فإن قلت : ما وجه قراءة من قرأ إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب؟ قلت : استثناها من قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ والدليل عليه قراءة عبد الله : فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك. ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت ، على أصل الاستثناء وإن كان الفصيح هو البدل ، أعنى قراءة من قرأ بالرفع ، فأبدلها عن أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان : روى أنه أخرجها معهم ، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي ، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : يا قوماه ، فأدركها حجر فقتلها.

وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها ، فإن هواها إليهم ، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين.

[سورة هود (11) : الآيات 82 إلى 83]

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها جعل جبريل جناحه في أسفلها ، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم مِنْ سِجِّيلٍ قيل هي كلمة معربة من سنككل ، بدليل قوله حجارة من طين. وقيل : هي من أسجله ، إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين. ويدل عليه قوله لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً وقيل : مما كتب اللّه أن يعذب به من السجل ، وسجل لفلان مَنْضُودٍ «1» نضد في السماء نضداً معدّاً للعذاب. وقيل يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً مُسَوَّمَةً معلمة للعذاب وعن الحسن كانت معلمة ببياض وحمرة. وقيل عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل : مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به وَما هِيَ من كل ظالم ببعيد. وفيه وعيد لأهل مكة. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

أنه سأل جبريل عليه السلام؟ فقال : يعنى ظالمي أمّتك ، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة «2». وقيل الضمير للقرى ، أى هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم بِبَعِيدٍ بشيء بعيد. ويجوز أن يراد : وما هي بمكان بعيد ، لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد ، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقا بالمرمى ، فكأنها بمكان قريب منه.

(1). قوله «منضود» في الصحاح : نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً ، أى : وضع بعضه فوق بعض. (ع)
(2). ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند.

[سورة هود (11) : الآيات 84 إلى 86]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86)

إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ يريد : بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف. أو أراكم بنعمة من اللّه حقها أن تقابل بغير ما تفعلون. أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه ، كقول مؤمن آل فرعون يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا يَوْمٍ مُحِيطٍ مهلك من قوله وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ وأصله من إحاطة العدوّ. فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ ، أم وصفَ اليوم بها؟ قلت : بل وصف اليوم بها ، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه. فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء «1» فما فائدة قوله أوفوا؟ قلت : نهوا أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأنّ في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه ، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه ، وجيء به مقيداً بالقسط : أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب ، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه. وفيه توقيف على أنّ الموفى عليه أن ينوى بالوفاء بالقسط ، لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل ، فهذه ثلاث فوائد.

البخس : الهضم والنقص. ويقال للمكس : البخس. قال زهير :

(1). قال محمود : «إن قلت النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ... الخ» قال أحمد : ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهيا عن ضده أن يستدل بهذه الآية ، فان الأمر لو كان عين النهى عن الضد ، لكان وروده عقيبه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم ، فاعتقد أن النهى في الآية قبل الأمر ، وذلك سهو وغفلة ، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم : وأما قوله : إن الإيفاء حسن في العقول ، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وقد سبق بطلانها ، وبينا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع ، ولا مجال العقل في حكم سمعي.

وَفِى كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ «1»

وروى : مكس درهم ، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً ، كما تفعل السماسرة. أو كانوا يمكسون الناس. أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك. والعثى في الأرض نحو السرقة والغارة

وفي ذلك استعظام للإيمان ، وتنبيه على جلالة شأنه. ويجوز أن يراد : إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم. ويجوز أن يراد. ما يبقى لكم عند اللّه من الطاعات خير «4» لكم ،

(1) أفى كل أسواق العراق إتاوة وما كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تستحي منا ملوك وتتقى محارمنا لا تتقى الدم بالدم
لزهير. وقيل : لجابر بن حيي التغلبي ، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ ، والاتاوة كالكتابة : الرشوة والجعالة :
يقال : أتوته أأتوه أتوا وإتاوة : أعطيته الخراج ، فهي في الأصل مصدر. والمكس : ما يأخذه العشار. ويروى «بخس درهم» أى نقص درهم» وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم ، فقال زهير : لا ينبغي ذلك. و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية ، فصارت أداة تحضيض. ويقال : استحيا واستحى كما هنا ، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها ، أى : لتستح منا الملوك ، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا ، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم ، أى لئلا ترجع إلا بذلك ، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم.
وروى «ألا يستحى منا المليك ويتقى» إلى آخره ، وهو لغة في الملك ، والمراد به ملك العراق.
(2). قال محمود : «بقية اللّه ما يبقى لكم من الحلال ... الخ» قال أحمد : المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ، لا نهيا ولا أمرا ، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهى. وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الايمان ، وقد قررها الزمخشري على ذلك.
(3). عاد كلامه. قال : «فان قلت بقية اللّه خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها ، ومعنى السؤال : أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع ، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة ، لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة ، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الايمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء. ومعنى الجواب : أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الايمان ، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب ، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب ، واللّه الموفق.
(4). عاد كلامه. قال : «و يجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند اللّه ... الخ» قال أحمد : قد تقدم أن عقيدة أهل السنة : أن لا خالق ولا رازق إلا اللّه ، إيمانا بقوله هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم ، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة. وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى اللّه تعالى ، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع ، واللّه الموفق.

كقوله وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ وإضافة البقية إلى اللّه من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه. وأمّا الحرام فلا يضاف إلى اللّه ولا يسمى رزقاً «1» ، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول : طاعة اللّه. وقرئ : تقية اللّه ، بالتاء وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً ، وقد أعذرت حين أنذرت.

[سورة هود (11) : آية 87]

قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ(87)

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات ، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ السخرية والهزء - والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز ، كما كانت ناهية في قوله إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وأن يقال : إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف ، كما يقال : تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز «2» وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته ، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعى عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك ، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال. ومعنى تأمرك أَنْ نَتْرُكَ تأمرك بتكليف أن نترك «3» ما يَعْبُدُ آباؤُنا لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. وقرئ أَصَلاتُكَ بالتوحيد. وقرأ ابن أبى عبلة : أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء ، بتاء الخطاب فيهما ، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس ، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير.

(1). قوله «و لا يسمى رزقا» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً. (ع)

(2). قوله «مساق الطنز» في الصحاح : الطنز السخرية. وطنز يطنز فهو طناز ، وأظنه مولداً أو معربا اه. (ع)
(3). قال محمود : «معناه تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيهما» قال أحمد : فعلى هذه القراءة يكون أَنْ نَفْعَلَ معطوفا على أن نترك ، وعلى المشهور : لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى ، فيتعين العطف فيها على ما يَعْبُدُ كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا ، على أنها مصدرية أو موصولة ، ثم قالوا : أو أن نفعل ، أى أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء ، هذه لطيفة فتنبه لها ، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره : تأمرك بتكليف أن نترك ، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال ، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة ، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضى ذلك ، والله أعلم. [.....]

وقيل : كان ينهاهم عن حذف الدراهم «1» والدنانير وتقطيمها ، وأرادوا بقولهم إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ نسبته إلى غاية السفه والغىّ ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره «2» فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك. وقيل : معناه إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك ، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

[سورة هود (11) : آية 88]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَماتَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

وَرَزَقَنِي مِنْهُ أى من لدنه رِزْقاً حَسَناً وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة. وقيل رِزْقاً حَسَناً حلالا طيباً من غير بخس ولا تطفيف. فإن قلت : أين جواب أَرَأَيْتُمْ وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت : جوابه محذوف ، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه ، ومعنى الكلام ينادى عليه. والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربى وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال : خالفني فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه ، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟

فيقول : خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً. ومنه قوله تعالى وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها ، لأستبد بها دونكم إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتي وأمرى بالمعروف ونهي عن المنكر مَا اسْتَطَعْتُ ظرف، أى : مدّة استطاعتي «3» للإصلاح ،

(1). قوله «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح : حذفت من شعري ومن ذنب الدابة ، أى : أخذت اه (ع)
(2). قوله «لا يبض حجره» في الصحاح : بض الماء بضيضاً : سال قليلا قليلا. وفي المثل : ما يبض حجره ، أى ما تندى صفاته. (ع)
(3). قال محمود : «ما استطعت ظرف أى مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت ، أو يكون مفعولا للمصدر كقوله : «ضعيف النكاية أعداءه» قال أحمد : والظاهر أنه ظرف. كهو في قوله فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وأما جعله مفعولا للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد ، لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذاك. قالوا : ولم يوجد في القرآن عاملا في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوعه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصا في أفصح الكلام. والله أعلم ،

وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً. أو بدل من الإصلاح ، أى : المقدار الذي استطعته منه.

ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك : إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت.

أو مفعول له كقوله : ضَعِيفُ النِّكايةِ أَعْدَاءَهُ «1»

أى ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتى وأذر ، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده. والمعنى : أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه ، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

[سورة هود (11) : الآيات 89 إلى 90]

وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

«جرم» مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد ، وإلى مفعولين تقول : جرم ذنباً وكسبه ، وجرمته ذنباً وكسبته إياه ، قال : جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا «2»

ومنه قوله تعالى لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ أى لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب.

وقرأ ابن كثير بضم الياء ، من أجرمته ذنباً ، إذا جعلته جار ما له ، أى كاسباً ، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد ، كما نقل : أكسبه المال ، من كسب المال. وكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته إياه ، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه. والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما ، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً ، كما إن كسبته مالا أفصح من أكسبته.

(1) ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخى الأجل
نكأ القرح نكأ بالهمز : جرحه بعد اند ماله ، ونكى العدو نكاية : قتله وجرحه. وأعداءه : مفعول النكاية. وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر. يخال : أى يظن الهرب من العدو بطيل الأجل من جبنه.
(2) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا
لزيادة بن أسماء. ويقال : جرم ذنبا إذا اكتسبه. وجرم النخل : قطعه. وجرمته كذا : إذا أكسبته إياه او حملنه عليه. يقول : طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلته. «جرمت فزارة» أى حق لها بعدها الغضب ، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط ، واشتهر الرفع عنهم ، لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول ، أى : أحقتهم الغضب ، أو أكسبتهم إياه ، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها ، فهو على إسقاط الخافض.

والمراد بالفصاحة : أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا. وقرأ أبو حيوة ، ورويت عن نافع : مِثْلُ ما أَصابَ ، بالفتح لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله : لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ «1»

وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ يعنى أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب الهالكين منكم. أولا يبعدون منكم في الكفر والمساوى وما يستحق به الهلاك. فان قلت : ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه «2»؟ قلت : إما أن يراد : وما إهلاكهم ببعيد ، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد. ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد ، وقليل وكثير ، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما رَحِيمٌ وَدُودٌ عظيم الرحمة للتائبين ، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه ، من الإحسان والإجمال.

(1) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا فيها فصرت إلى وجناء شملال
تعطيك مشيا وإرقالا ودأدأة إذا تسربلت الآكام بالآل
لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فوق غصن ذات أو قال
لأبى قيس بن رقاعة يصف ناقته. وقوله «فيها» أى في دار المحبوبة. وللوجناء : الشديدة الصلبة. والشملال : الخفيفة السريعة. والإرقال والدأدأة : نوعان من السير ، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل ، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض ، بالتسربل وهو لبس السرابيل : أى الثياب على طريق التصريحية ، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم ، أو بحنينها إلى وطنها ، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب - بالكسر : - النصيب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال : جمع وقل كجبل وهي الحجارة ، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول : لم يمنع نصيبها من الماء عنها ، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل» وبنى على الفتح لاضافته إلى مبنى ، واستعار النطق لتغريد الحمامة على سبيل التصريحية ، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقة صوتها ولم ترها ففزعت. أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطربا لذيذا ، فحنت الناقة إلى وطنها. وذات أو قال : وصف لغصن ، لأنه جمع غصن كما قيل في فلك ، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري.
ويجوز أن يقرأ باضافة غصن إلى ذات ، والمعنى : غصن أرض أو شجرة ذات أو قال ، لكن الأول أحسن في الوزن.
وقد روى : في غصون ذات أو قال ، أى : ذات قطع بارزة بعد التعليم ، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة ، أو صاحبه أحجار ، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة ، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقة إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك. وقيل : إنه جمع «و قل» بالسكون ، وهو شجر المقل. وقيل : يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد ، أى ذات ارتفاعات.
(2). قوله «على ما يقتضيه قوم من عمله» وذلك بأن بعامل معاملة المؤنث ، نحو كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ أو معاملة جمع الذكور ، نحو إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ لأن الأول مقتضى حمله على لفظه ، كما سيأتى في سورة الشعراء ، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة ، والثاني مقتضى حمله على معناه وهو ظاهر. (ع)

[سورة هود (11) : الآيات 91 إلى 95]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ

ما نَفْقَهُ ما نفهم كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له ، كقوله وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ. أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه ، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : ما أدرى ما تقول. أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً ، لا ينفعهم كثير منه ، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء ، وقيل : كان ألثغ فِينا ضَعِيفاً لا قوة لك ولا عز فيما بيننا «1» ، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها. وعن الحسن ضَعِيفاً مهيناً. وقيل ضَعِيفاً أعمى. وحمير تسمى المكفوف : ضعيفاً ، كما يسمى ضريراً ، وليس بسديد ، لأنّ فِينا يأباه.

ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى ، لم يكن كلاما ، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ، ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطا. والرهط : من الثلاثة إلى العشرة. وقيل : إلى السبعة.

وإنما قالوا : ولولاهم ، احتراما لهم واعتدادا بهم ، لأنهم كانوا على ملتهم ، لا خوفا من شوكتهم وعزتهم لَرَجَمْناكَ لقتلناك شرّ قتلة وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ أى لا تعزّ علينا ولا تكرم ، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعزّ علينا رهطك ، لأنهم من أَهلّ ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل ،

(1). قال محمود : «معنى قولهم ضعيفاً ، أى : لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ... الخ» قال أحمد : وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان مليا بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز ، بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال في جوابهم أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ولو قيل : وما عززت علينا ، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت : فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ قلت : تهاونهم به - وهو نبىّ الله - تهاون بالله ، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا ونسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، والظهرىّ : منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب. ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس : أمسىّ بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ قد أحاط بأعمالكم علماً ، فلا يخفى عليه شيء منها عَلى مَكانَتِكُمْ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة. أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين. والمعنى : اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي. أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها إِنِّي عامِلٌ على حسب ما يؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكنني مَنْ يَأْتِيهِ يجوز أن تكون مَنْ استفهامية ، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه ، وأينا هو كاذب ، وأن تكون موصولة قد عمل فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون الشقىّ الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في سَوْفَ تَعْلَمُونَ؟ قلت : إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها : وصل خفى تقديرىّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر ، كأنهم قالوا : فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه وَارْتَقِبُوا وانتظروا العاقبة وما أقول لكم إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ أى منتظر. والرقيب بمعنى الراقب ، من رقبه ، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم. أو بمعنى المراقب ، كالعشير والنديم. أو بمعنى المرتقب ، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع. فإن قلت : قد ذكر عملهم على مكانتهم «1» وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ،

(1). قال محمود : «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم ... الخ» قال أحمد : والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعا لهم ، فالأول وهو قوله مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب ، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كما تقول لمن تهدده : ستعلم من يهان ومن يعاقب ، وإنما يعنى المخاطب في الكلامين ، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو ، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلا فالآخر هو المحق قطعا ، فذكره لإحدى العاقبتين صريحا يفهم ذكر الأخرى تعريضا :
والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح ، وهذا منه ، والذي يدل على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر ، استغناء عنها بذكر عاقبتهم ، كما بيناه في الآية التي في أول هذه السورة ، وهي قوله تعالى قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

فكان القياس أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق ، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم. قلت : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ يعنى في زعمكم ودعواكم ، تجهيلا لهم. فإن قلت : ما بال ساقتى قصة «1» عاد وقصة مدين جاءتا بالواو ، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت. قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ، وذلك قوله إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب ، كما تقول : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت. وأما الأخريان فلم تقعا بتلك المثابة. وإنما وقعنا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجاثم : اللازم لمكانه لا يريم ، كاللابد ، «2» يعنى أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا «3» كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين متردّدين. البعد : بمعنى البعد وهو الهلاك ، كالرشد بمعنى الرشد. ألا ترى إلى قوله كَما بَعِدَتْ؟ وقرأ السلمى : بعدت ، بضم العين ، والمعنى في البناءين واحد ، وهو نقيض القرب ، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره ، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد ، وقراءة السلمى جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص ، كما يقال : ذهب فلان ومضى ، في معنى الموت. وقيل : معناه بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

[سورة هود (11) : الآيات 96 إلى 99]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

(1). قوله «ساقتى قصة» في الصحاح : ساقة الجيش مؤخره اه. ومثله ساقة القصة هنا. (ع)
(2). قوله «كاللابد» أى المتلبد اللاصق بالأرض ، أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «بحيث هو قعصا» في الصحاح : يقال مات فلان قعصا ، إذا أصابته ضربة فمات مكانه. (ع)

بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ فيه وجهان : أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته ، وأن يراد بالسلطان المبين : العصا ، لأنها أبهرها وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادّعى الإلهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتى إلا من شيطان مارد ، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد : الذي فيه رشد : أى : وما في أمره رشد إنما هو غىّ صريح وضلال ظاهر مكشوف ، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم ، لا من يضلهم ويغويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام ، وعلموا أن معه الرشد والحق ، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط يَقْدُمُ قَوْمَهُ أى كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله : وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله يَقْدُمُ قَوْمَهُ تفسيراً لذلك وإيضاحا. أى : كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى ، كما استعمل الغىّ في كل ما يذم ويتسخط. ويقال : قدمه بمنى تقدّمه. ومنه : قادمة الرجل ، كما يقال : قدمه بمعنى تقدّمه. ومنه مقدّمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدّم. ومنه مقدّم العين. فإن قلت : هلا قيل : يقدم قومه فيوردهم؟

ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت : لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به ، فكأنه قيل : يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة. والْوِرْدُ المورود. والْمَوْرُودُ الذي وردوه. شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة ، ثم قيل : بئس الورد الذي يردونه النار ، لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضدّه وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ في هذه الدنيا لَعْنَةً أى يلعنون في الدنيا ، ويلعنون في الآخرة بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ رفدهم. أى : بئس العون المعان. وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له ، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وقيل : بئس العطاء المعطى.

[سورة هود (11) : الآيات 100 إلى 101]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101)

ذلِكَ مبتدأ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ خبر بعد خبر ، أى : ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك مِنْها الضمير للقرى ، أى : بعضها باق وبعضها عافى الأثر ، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد. فإن قلت : ما محل هذه الجملة؟ قلت : هي مستأنفة لا محل لها وَما ظَلَمْناهُمْ بإهلاكنا إياهم وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بارتكاب ما به أهلكوا فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ فما قدرت أن ترد عنهم بأس اللّه يَدْعُونَ يعبدون وهي حكاية حال ماضية. ولَمَّا منصوب بما أغنت أَمْرُ رَبِّكَ عذابه ونقمته تَتْبِيبٍ تخسير. يقال تبّ إذا خسر. وتببه غيره ، إذا أوقعه في الخسران.

[سورة هود (11) : آية 102]

وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)

محل الكاف الرفع ، تقديره : ومثل ذلك الأخذ أَخْذُ رَبِّكَ والنصب فيمن قرأ : وكذلك أخذ ربك ، بلفظ الفعل. وقرئ : إذ أخذ القرى وَهِيَ ظالِمَةٌ حال من القرى أَلِيمٌ شَدِيدٌ وجيع صعب على المأخوذ. وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها ، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه. فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد ، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

[سورة هود (11) : آية 103]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)

ذلِكَ إشارة إلى ما قص اللّه من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم لَآيَةً لِمَنْ خافَ لعبرة له ، لأنه ينظر إلى ما أحل اللّه بالمجرمين في الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من اللّه تعالى. ونحوه إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى . ذلِكَ إشارة إلى يوم القيامة ، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه. والنَّاسُ رفع باسم المفعول «1» الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس. فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ «2» قلت : لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً

(1). قال محمود : «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول ... الخ» قال أحمد : ولهذا السر ورد قوله تعالى إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً فاستعمل الفعل حيث يليق به ، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضا ... الخ.
(2). قوله «من دلالة» عبارة النسفي : دلالته. (ع) [.....]

مضروباً لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ تعثر على صحة ما قلت لك. ومعنى يجمعون له : يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب يَوْمٌ مَشْهُودٌ مشهود فيه ، فاتسع في الظرف «1» بإجرائه مجرى المفعول به ، كقوله : وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْما وَعَامِراً «2»

أى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد. والمراد بالمشهود : الذي كثر شاهدوه.

ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود ، وطعام محضور. قال : فِى مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِى النَّاسِ مَشْهُودِ «3»

فإن قلت : فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه ، كما قال اللّه تعالى فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ؟ قلت : الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام ، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها ، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها ، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه ، لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده ، وكذلك قوله :

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولا به ، وكذلك الضمير في فَلْيَصُمْهُ والمعنى : فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه ، يعنى : فمن كان منكم مقيما حاضراً لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه ، ولو نصبته مفعولا فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر ، لا يشهده المقيم ، ويغيب عنه المسافر :

(1). قال محمود : «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف ... الخ» قال أحمد : يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكونا عنه مبهما ، ومن الإبهام ما يكون تفخيما ، وهذا مكانه.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 408 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3) من الخصوم إذا حد الضجاج بهم بعد ابن سعد ومن الضمر القود
ومشهد قد كفيت الغائبين به في محفل من نواصي القوم مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس عند الحفاظ وقلب غير مزؤد
لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجا : صاح. وضج البعير من الحمل : تعب من ثقله ، والضمر بالتشديد : جمع ضامر. وفرس أقود : طويل العنق. ورجل أقود : يقبل بوجهه ولا ينثني. والقرد : جمعه. ومشهد : عطف على الخصوم. ويجوز جره برب ، أى مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم ، فالنواصى : استعارة لهم. وفرجته ، فككت كربته ، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أى غيرة الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال : أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه.

[سورة هود (11) : آية 104]

وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)

الأجل : يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، فيقولون : انتهى الأجل ، وبلغ الأجل آخره ، ويقولون : حل الأجل فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ يراد آخر مدة التأجيل ، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها ، فمعنى قوله وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف. وقرئ : وما يؤخره بالياء.

[سورة هود (11) : آية 105]

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)

قرئ يَوْمَ يَأْتِ بغير ياء. ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاه الخليل وسيبويه. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. فإن قلت : فاعل يأتى ما هو؟ قلت : الله عز وجل ، كقوله هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ، وَجاءَ رَبُّكَ وتعضده قراءة : وما يؤخره ، بالياء. وقوله بِإِذْنِهِ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم ، كقوله تعالى أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ. فإن قلت : بما انتصب الظرف؟ قلت : إمّا أن ينتصب بلا تكلم. وإمّا بإضمار «اذكر» وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى ينتهى الأجل يوم يأتى ، فإن قلت : فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم ، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه قلت : المراد إتيان هو له وشدائده لا تَكَلَّمُ لا تتكلم ، وهو نظير قوله لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ. فإن قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وقوله تعالى هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ، قلت : ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن ، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها : يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم فَمِنْهُمْ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا ، لأنّ ذلك معلوم ، ولأنّ قوله لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ يدل عليه ، وقد مرّ ذكر الناس في قوله مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ والشقي الذي وجبت له النار لإساءته ، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

[سورة هود (11) : الآيات 106 إلى 107]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107)

قراءة العامّة بفتح الشين. وعن الحسن شَقُوا بالضم ، كما قرئ سُعِدُوا. والزفير : إخراج النفس. والشهيق : ردّه. قال الشماخ :

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ «1»

ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ فيه وجهان ، أحدهما : أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وقوله. وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم : إمّا سماء يخلقها اللّه ، أو يظلهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء. والثاني أن يكون عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع ، كقول العرب : ما دام تعار ، وما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأبيد. فإن قلت : فما معنى الاستثناء؟ قلت : هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم الجنة : وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار ، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط اللّه عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم ، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم ، وهو رضوان اللّه ، كما قال وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ولهم ما يتفضل اللّه به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالاستثناء.

والدليل عليه قوله عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ومعنى قوله في مقابلته إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له ، فتأمّله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة «2». إنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة ، فإنّ الاستثناء الثاني ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم. وما ظنك بقوم نبذوا كتاب اللّه لما روى لهم بعض النوابت «3»

(1). للشماخ يصف حمار وحشى. والمدى : المسافة والغاية. والتطريب : ترديد الصوت وترخيمه. والزفير : إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول : الصوت الذي يردده في حلقه وصدره.
(2). قوله «و لا يخدعنك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدى ، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد. (ع)
(3). قوله «لما روى لهم بعض النوابت» في الصحاح : إن بنى فلان لنابتة شر. والنوابت من الأحداث الأعمار. (ع)

عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد «1» ، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً ، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث ، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار ، وهذا ونحوه والعياذ باللّه من الخذلان المبين ، زادنا اللّه هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ، وتنبيهاً على أن نعقل عنه ، ولئن صح هذا عن ابن العاص ، فمعناه أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها ، وأقول : ما كان لابن عمرو في سيفيه ، ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى اللّه عنه ، ما يشغله عن عن تسيير هذا الحديث.

[سورة هود (11) : الآيات 108 إلى 109]

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

غَيْرَ مَجْذُوذٍ غير مقطوع ، ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية ، كقوله لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

لما قصّ قصص عبدة الأوثان ، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه ، وما أعدّ لهم من عذابه قال : فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ أى : فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّصهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله ، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية. و«ما» في مما ، وكما : يجوز أن تكون مصدرية وموصولة ، أى : من عبادتهم ، وكعبادتهم. أو مما يعبدون من الأوثان ، ومثل ما يعبدون منها وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ أى حظهم من العذاب «2» كما وفينا آباءهم أنصباءهم. فإن قلت : كيف نصب غَيْرَ مَنْقُوصٍ حالا عن النصيب الموفى؟ قلت : يجوز أن يوفى وهو ناقص ، ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول. وفيته شطر حقه ، وثلث حقه ، وحقه كاملا وناقصا ،

(1). الحديث أخرجه البزار قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما قال «يأتى على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد ، يعنى من الموحدين» كذا فيه ورجاله ثقات. والتفسير لا أدرى ممن هو ، وهو أولى من تفسير المصنف ، ويؤيده ما رواه ابن عدى عن أنس رضى اللّه عنه مرفوعا «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها ، ما فيها من أمة محمد أحد» وفي الباب عن أبى أمامة رفعه «يأتى على جهنم يوم ما فيها من بنى آدم

(2). قال محمود : «أى حظهم من العذاب ، وإنما نصب غير منقوص حالا من النصيب الموفى ، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول : وفيته شطر حقه وحقه كاملا» قال أحمد : وهم واللّه أعلم ، فان التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملا كان أو ناقصاً ، فقولك : وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه ، فما وجه انتصابه حالا عنه؟ والأوجه أن يقال : استعملت التوفية بمعنى الإعطاء ، كما استعمل التوفي بمعنى الأخذ. ومن قال :
أعطيت فلانا حقه. كان جديراً أن يؤكده بقوله «غير منقوص» واللّه أعلم.

[سورة هود (11) : آية 110]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)
فَاخْتُلِفَ فِيهِ آمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف في القرآن وَلَوْلا كَلِمَةٌ يعنى كلمة الإنظار إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسلية أيضاً.

[سورة هود (11) : آية 111]

وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)

وَإِنَّ كُلًّا التنوين عوض من المضاف إليه ، يعنى : وإنّ كلهم ، وإنَّ جميع المختلفين فيه لَيُوَفِّيَنَّهُمْ جواب قسم محذوف. واللام في لَمَّا موطئة للقسم ، و«ما» مزيدة. والمعنى : وإن جميعهم واللّه ليوفينهم رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ من حسن وقبيح وإيمان وجحود. وقرئ : وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة ، اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل. وقرأ أبىّ : وإن كل لما ليوفينهم ، على أنّ إن نافية. ولما بمعنى إلا. وقراءة عبد اللّه مفسرة لها.
وإن كل إلا ليوفينهم ، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم : وإن كلا لما ليوفينهم ، بالتنوين ، كقوله أَكْلًا لَمًّا والمعنى : وإن كلا ملمومين ، بمعنى مجموعين ، كأنه قيل : وإنّ كلا جميعاً ، كقوله فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ.

[سورة هود (11) : آية 112]

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق ، غير عادل عنها وَمَنْ تابَ مَعَكَ معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى : فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك وَلا تَطْغَوْا ولا تخرجوا عن حدود اللّه إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ عالم فهو مجازيكم به ، فاتقوه. وعن ابن عباس : ما نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال : شيبتني هود والواقعة وأخواتهما «1». وروى أنّ أصحابه قالوا له : لقد أسرع فيك الشيب. فقال : شيبتني هود. وعن بعضهم : رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت : شيبتني هود. فقال : نعم. فقلت : ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال : لا ، ولكن قوله فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ.

وعن جعفر الصادق رضى اللّه عنه فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال : افتقرْ إلى اللّه بصحة العزم.

[سورة هود (11) : آية 113]

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113)

قرئ : ولا تركنوا ، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء. وعن أبى عمرو : بكسر التاء وفتح الكاف ، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم. ونحوه قراءة من قرأ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بكسر التاء. وقرأ ابن أبى عبلة : ولا تركنوا ، على البناء للمفعول ، من أركنه إذا أماله ، والنهى متناول للانحطاط في هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ،

وقوله إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل إلى الظالمين. وحكى أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم. وعن الحسن رحمه اللّه : جعل اللّه الدين بين لاءين : وَلا تَطْغَوْا ، وَلا تَرْكَنُوا ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين : عافانا اللّه وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك اللّه ويرحمك : أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم اللّه بما فهمك اللّه من كتابه وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ اللّه الميثاق على العلماء ، قال اللّه سبحانه لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت :

(1). وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبى إسحاق عن عكرمه عن ابن عباس قال قال أبو بكر «يا رسول اللّه قد شبت ، قال : قد شيبتني هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون. وإذا الشمس كورت» وقال حسن غريب.
وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال : اختلف فيه على أبى إسحاق ، فقال شيبان كذا. وقال على بن صالح : عن أبى إسحاق عن أبى حجية قال : وقال زكريا عن أبى إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال. وأطال الدارقطني في ذكر علله - واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل - ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال قال عمر ابن الخطاب : يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب. فقال شيبتني هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» وأخرجه ابن سعد وابن عدى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. وفيه «الواقعة والقارعة وسأل وإذا الشمس كورت».

أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغى بدنوّك ممن لم يؤدّ حقاً ولم يترك باطلا ، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون الشكّ بك على العلماء ، ويقتادون بك قلو ، الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك «1» من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللّه فيهم فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا فإنك تعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداو دينك فقد دخله سقم ، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد ، وما يخفى على اللّه من شيء في الأرض ولا في السماء ، والسلام. وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعى : ما من شيء أبغض إلى اللّه من عالم يزور عاملا. وعن محمد ابن مسلمة : الذباب على العذرة ، أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى اللّه في أرضه «2»» ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية ، هل يسقى شربة ماء؟ فقال : لا ، فقيل له : يموت؟ فقال : دعه يموت.

وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ حال من قوله فَتَمَسَّكُمُ أى : فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال. ومعناه : وما لكم من دون اللّه من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه ، لا يقدر على منعكم منه غيره ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ثم لا ينصركم هو ، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت : فما معنى ثم؟ قلت : معناها الاستبعاد ، لأنّ النصرة من اللّه مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

[سورة هود (11) : آية 114]

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (114)

طَرَفَيِ النَّهارِ غدوة وعشية وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ وساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه ، وصلاة الغدوة : الفجر. وصلاة العشية : الظهر والعصر ، لأنّ ما بعد الزوال عشىّ. وصلاة الزلف : المغرب والعشاء. وانتصاب طرفى النهار على الظرف ، لأنهما مضافان إلى الوقت ، كقولك : أقمت عنده جميع النهار ، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره ،

(1). قوله «و ما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره : في جنب ما أعطوك ، وما أقل ما أصلحوا لك في جنب ما أفسدوا ... الخ. (ع)
(2). قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري.

تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ونحوه وَأَطْرافَ النَّهارِ وقرئ : وزلفا ، بضمتين. وزلفا ، بسكون اللام. وزلفى : بوزن قربى. فالزلف : جمع زلفة ، كظلم في ظلمة. والزلف بالسكون : نحو

(1). أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».
(2). كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فانه قال كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصارى. والحديث عند الترمذي والنسائي والبزار والطبراني والطبري من رواية عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة بن أبى اليسر ابن عمرو قال : أتتنى امرأة تبتاع تمرا - فقلت لها : في البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معى في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت : اتق الله. فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له : فقال استر على نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأطرق طويلا حتى أوحى إليه أَقِمِ الصَّلاةَ ... الآية قال ابن أبى اليسر : أتيته فقرأها على. فقال أصحابه : يا رسول الله ، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : بل للناس عامة.
وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة؟» وللدارقطنى والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها.
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم توضأ وضوأ حسنا ثم صل. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ : أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال : بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فىّ ما شئت.
فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك ولم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلق الرجل فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلا. فدعاء فتلا عليه أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ ... الآية فقال رجل من القوم : يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال : بل للناس كافة».

[سورة هود (11) : آية 115]

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير ، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله ، كأنه قال : وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية ، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه ، فلا يتم شيء منه إلا به فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

[سورة هود (11) : آية 116]

فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116)

فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ فهلا كان. وقد حكوا عن الخليل : كل «لولا» في القرآن فمعناها «هلا» إلا التي في الصافات ، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ ، وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ.

أُولُوا بَقِيَّةٍ أو لو فضل وخير. وسمى الفضل والجودة بقية لأنّ الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله ، فصار مثلا في الجودة والفضل. ويقال : فلان من بقية القوم ، أى من خيارهم.

وبه فسر بيت الحماسة :

إنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِى بَقِيَّتُكُمْ «1»

(1) يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت
وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا قولا يبرئكم إنى أنا الموت
إن تذنبوا ثم يأتينى بقيتكم فما علىّ بذنب عندكم فوت
لروشيد بن كثير الطائي. وزجاه - بالتخفيف والتشديد - وأزجاه : ساقه. وأراد بالصوت : الصيحة أو القصة التي بلغته عنه ، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم : خيارهم ، وتأتى مصدراً بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنبوا ثم يأتينى أماثلكم يعتذرون عنكم فلا فوت ، ولا بأس علىّ بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني : ثم يأتينى منكم ذو الإبقاء على أنفسهم ، يقولون : لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فكذلك.
ويجوز أن المعنى : إن تجتمعوا على للمحاربة أو للاعتذار ، فلا تفوتني مؤاخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في «يأتينى» للإشباع ، لكن الأخير غير مناسب لقوله «بادروا بالعذر». [.....]

ومنه قولهم : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا. ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى، أى : فهلا كان منهم ذو وبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط اللّه وعقابه.

وقرئ : أولو بقية ، بوزن لقية ، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه : «بقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1»» والبقية المرّة من مصدره. والمعنى : فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام اللّه ، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم إِلَّا قَلِيلًا استثناء منقطع ، معناه : ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى. ومِنَ فِي مِمَّنْ أَنْجَيْنا حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض ، لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم ، بدليل قوله تعالى أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا. فإن قلت : هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه يحمل عليه؟ قلت : إن جعلته متصلا على ما عليه ظاهر الكلام ، كان المعنى فاسداً ، لأنه يكون تحضيضاً لأولى البقية على النهى عن الفساد ، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول : هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم ، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت في تحضيضهم على النهى عن الفساد معنى نفيه عنهم ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، كان استثناء متصلا ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابه على أصل الاستثناء ، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ أراد بالذين ظلموا : تاركي النهى عن المنكرات ، أى : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والتترف ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء. ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم. وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ، واتبع الذين ظلموا ، يعنى : واتبعوا جزاء ما أتوفوا فيه. ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة : أنهم اتبعوا جزاء إترافهم. وهذا معنى قويّ لتقدم الإنجاء ، كأنه قيل : إلا قليلا ممن أنجينا منهم وهلك السائر. فإن قلت : علام عطف قوله وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا؟ قلت : إن كان معناه : واتبعوا الشهوات ، كان معطوفاً على مضمر ، لأنّ المعنى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا. وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف ، فالواو للحال ، كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم. فإن قلت : فقوله وَكانُوا مُجْرِمِينَ؟ قلت : على أترفوا أى : اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين ، لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام. أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر. أو على اتبعوا ، أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكما عليهم بأنهم قوم مجرمون.

(1). أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال «بقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صلاة العتمة ، فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج ... الحديث».

[سورة هود (11) : آية 117]

وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117)

كانَ بمعنى صح واستقام. واللام لتأكيد النفي. وبِظُلْمٍ حال من الفاعل. والمعنى : واستحال في الحكمة أن يهلك اللّه القرى ظالما لها وَأَهْلُها قوم مُصْلِحُونَ تنزيها لذاته عن الظلم ، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل:

[سورة هود (11) : الآيات 118 إلى 119]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمّة واحدة أى ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، كقوله إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وهذا الكلام يتضمن نفى الاضطرار ، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، فلذلك قال وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إلا ناساً هداهم اللّه ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه ، يعنى : ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم ، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ وهي قوله للملائكة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

[سورة هود (11) : الآيات 120 إلى 122]

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122)

وَكُلًّا التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل. وكل نبأ نَقُصُّ عَلَيْكَ ومِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ بيان لكل. ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ بدل من كلا. ويجوز أن يكون المعنى : كل واقتصاص نقصّ عليك ، على معنى : وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك ، يعنى : على الأساليب المختلفة ، وما نُثَبِّتُ بِهِ مفعول نقصّ. ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ أى في هذه السورة.

أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ من أهل مكة وغيرهم اعْمَلُوا على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها إِنَّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا بنا الدوائر إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أن ينزل بكم نحو ما اقتص اللّه من النقم النازلة بأشباهكم.

[سورة هود (11) : آية 123]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك وكافلك وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وقرئ : تعملون ، بالتاء : أى أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به ، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء اللّه تعالى ذلك «1»

(1). تقدم إسناده في آل عمران ويأتى في آخر الكتاب.

سورة يوسف

(مكية [إلا الآيات 1 و2 و3 و7 فمدنية] وهي مائة وإحدى عشرة آية [نزلت بعد سورة هود])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يوسف (12) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3)

تِلْكَ إشارة إلى آيات السورة. والْكِتابِ الْمُبِينِ السورة ، أى تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم. أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند اللّه لا من عند البشر. أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم. أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف. فقد روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف أَنْزَلْناهُ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا وسمى بعض القرآن قرآناً ، لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ. الْقَصَصِ على وجهين : يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص، تقول : قصّ الحديث يقصه قصصاً ، كقولك : شله يشله شللا ، إذا طرده. ويكون «فعلا» بمعنى «مفعول» كالنفض والحسب. ونحوه النبأ والخبر : في معنى المنبأ به والمخبر به. ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر ، كالخلق والصيد.

وإن أريد المصدر ، فمعناه : نحن نقص عليك أحسن القصص بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ أى بإيحائنا إليك هذه السورة ، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر ، لإضافته إليه ، ويكون المقصوص محذوفاً ، لأنّ قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ مغن عنه. ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقصّ ، كأنه قيل : نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص : أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص ، فمعناه : نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها «1» والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه ، كما يقال في الرجل : هو أعلم الناس وأفضلهم ، يراد في فنه. فإن قلت : ممّ اشتقاق القصص؟ قلت : من قصّ أثره إذا اتبعه ، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ، كما يقال : تلا القرآن ، إذا قرأه ، لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية وَإِنْ كُنْتَ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في قَبْلِهِ راجع إلى قوله : ما أوحينا. والمعنى : وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه ، أى : من الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه.

[سورة يوسف (12) : آية 4]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

إِذْ قالَ يُوسُفُ بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال ، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص ، فإذا قصَّ وقته فقد قص. أو بإضمار «اذكر» ويوسف اسم عبراني ، وقيل عربى وليس بصحيح ، لأنه لو كان عربياً لا نصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف. فإن قلت : فما تقول فيمن قرأ «يوسف» بكسر السين ، أو «يوسف» بفتحها ، هل يجوز على قراءته أن يقال «هو عربى» لأنه على وزن المضارع المبنى للفاعل أو المفعول من آسف. وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت : لا ، لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة ، على أن الكلمة أعجمية ، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى ، ونحو يوسف : يونس ، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربى لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس. وعن

(1). قوله «ليست في غيرها» لعله «في غيره» كعبارة النسفي. (ع)
(2). أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الكريم ابن الكريم إلى آخره» وفي البخاري عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكريم بن الكريم إلى آخره» وهو في المتفق عليه عن أبى هريرة لكن بلفظ «سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم؟ فقال أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا : يا رسول الله ليس عن هذا نسألك. قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله».

فإن قلت : ما هذه التاء؟ قلت : تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف. فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر ، وشاة ذكر، ورجل ربعة ، وغلام يفعة. فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟ قلت : لأنَّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره. فإن قلت : فما هذه الكسرة؟ قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك : يا أبى ، قد زحلقت إلى التاء ، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحا : فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قلت : امتنع ذلك فيها، لأنها اسم ، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب ، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرّك تخفيفاً ، لأنها حرف لين. وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها. فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوّض منه ، لأنها في حكم الياء ، إذا قلت : يا غلام ، فكما لا يجوز «يا أبتى» لا يجوز «يا أبت». قلت الياء والكسرة قبلها شيئان والتاء عوض من أحد الشيئين ، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير. ألا ترى إلى قولهم «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك. فإن قلت : فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة، لأنها قرينة الياء ولصيقتها. فإن دلت على مثل ذلك في «يا أبت» فالتاء المعوّضة لغو : وجودها كعدمها.

قلت : بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبى. فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ قلت : أما من فتح فقد حذف الألف من «يا أبتا» واستبقى الفتحة قبلها ، كما فعل من حذف الياء في «يا غلام» ويجوز أن يقال : حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك «يا أبى».

وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث ، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال : «يا أبت» كما تقول «يا تبة» «1» من غير اعتبار لكونها عوضا من ياء الاضافة. وقرئ : إنى رأيت ، بتحريك الياء.

(1). قوله «كما تقول يا تبة» بكسر التاء وتشديد الباء : الحالة الشديدة. وفي نسخة : يا ابنة ، كذا بهامش الأصل. (ع)

وأحد عشر : بسكون العين ، تخفيفا لتوالى المتحركات فيما هو في حتم اسم واحد ، وكذا إلى تسعة عشر ، إلا اثنى عشر ، لئلا يلتقى ساكنا ، ورأيت من الرؤيا ، لا من الرؤية ، لأنَّ ما ذكره معلوم أنه منام ، لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة ، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ، ولما خفيت عليه وعلى الناس. فإن قلت : ما أسماء تلك الكواكب؟ قلت : روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرنى عن النجوم التي رآهنّ يوسف ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي «إن أخبرتك هل تسلم»؟ قال : نعم. قال : «جريان ، والطارق ، والذيال ، وقابس ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ. ووثاب ، وذو الكتفين.

رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له «1»» فقال. اليهودي : إي والله ، إنها لأسماؤها. وقيل : الشمس والقمر أبواه. وقيل : أبوه وخالته : والكواكب. إخوته. وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له ، فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم ، فيبغوا لك الغوائل. وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل : ثمانون. فإن قلت لم أخر الشمس والقمر؟ قلت : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص ، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على عيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة ، ثم عطفهما عليها لذلك ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ،

(1). أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال «جاء بستان اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، هل تعرف النجوم التي رآها يوسف فسجدن له؟ فسكت الحديث» ولم يذكر فيهن الشمس والقمر وقال : رآها يوسف محيطة بأكتاف السماء ساجدة له ، وزاد : فقصها على أبيه فقال له :
إن هذا أمر قد تشتت وسيجمعه الله بعد» رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل والطبراني وأبو حاتم في رواية الحاكم بن زهير عن السدى نحوه ، وذكره العقيلي من حديثه وقال : لا يثبت. وقال البزار : لا نعلم له طريقاً إلا هكذا. والحاكم ليس بقوى ، وكذا قال البيهقي : إن الحاكم تفرد به. وغفل عن طريق شيخ الحاكم وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وأعله بالحاكم. وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبى حاتم في العلل عن أبى زرعة أنه قال : حديث منكر.
(2). قال محمود : «إن قلت ما معنى تكرار رأيت ... الخ» قال أحمد : وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل. الحال ، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال وهي المقصودة ، إذ الآية في السجود كانت ، والله أعلم.

كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها؟ فقال رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ. فإن قلت. فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت : لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود. أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع في كلامهم ، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 5 إلى 6]

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه ، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم.

والرؤيا بمعنى الرؤية ، إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة ، فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل : القربة والقربى. وقرئ : رؤياك ، بقلب الهمزة واواً. وسمع الكسائي : رُيَّاك ورِيَّاك ، بالإدغام وضم الراء وكسرها ، وهي ضعيفة ، لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم «اتزر» من الإزار ، و«اتجر» من الأجر فَيَكِيدُوا منصوب بإضمار «أن» والمعنى : إن قصصتها عليهم كادوك : فإن قلت : هلا قيل : فيكيدوك ، كما قيل : فكيدوني؟ قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ، ليفيد معنى فعل الكيد ، مع إفادة معنى الفعل المضمن ، فيكون آكد وأبلغ في التخويف ، وذلك نحو : فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ فهو يحمل على الكيد والمكر وكلّ شرّ ، ليورّط من يحمله ، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله وَكَذلِكَ ومثل ذلك الاجتباء يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ يعنى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام.

وقوله وَيُعَلِّمُكَ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك ويتمّ نعمته عليك. والاجتباء. الاصطفاء ، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء في الحوض : جمعته. والأحاديث : الرؤيا : لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان.

وتأويلها. عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا ، وأصحهم عبارة لها. ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها. وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها عن الله ورسله ، فيقال : قال الله وقال الرسول كذا وكذا. ألا ترى إلى قوله تعالى فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ، اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا. ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة. وقيل : أتمها على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، ومن ذبح الولد.

وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. وقيل : علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب ، فلذلك قال وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ وقيل : لما بلغت

[سورة يوسف (12) : آية 7]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7)

فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ أى في قصتهم وحديثهم آياتٌ علامات ودلائل على قدرة اللّه وحكمته في كل شيء لِلسَّائِلِينَ لمن سأل عن قصتهم وعرفها. وقيل آيات على نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب.

وقرئ : آية ، وفي بعض المصاحف : عبرة. وقيل : إنما قص اللّه تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغى إخوته عليه ، لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به. وقيل أساميهم : يهوذا : وروبيل ، وشمعون، ولاوى ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر : السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة ، وبلهة : فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف.

[سورة يوسف (12) : آية 8]

إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8)

لَيُوسُفُ اللام للابتداء. وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت «1» لا شبهة فيه وَأَخُوهُ هو بنيامين. وإنما قالوا أخوه وهم جميعاً إخوته ، لأنّ أمّهما كانت واحدة. وقيل أَحَبُّ في الاثنين ، لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه ، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه «من» ولا بد من الفرق مع لام التعريف ، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في وَنَحْنُ عُصْبَةٌ واو الحال. يعنى : أنه يفضلهما في المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه ، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة : العشرة فصاعداً. وقيل : إلى الأربعين ، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب. وروى النزال بن سبرة عن علىّ رضى اللّه عنه : ونحن عصبة ، بالنصب. وقيل : معناه ونحن نجتمع عصبة. وعن ابن الأنبارى هذا كما تقول العرب ، إنما العامري عمته ، أى يتعهد عمته.

[سورة يوسف (12) : آية 9]

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9)

(1). قال محمود : «اللام للتوكيد ، دخلت للاشعار بأن زيادة محبة أبيهم لهما أمر ثابت ... الخ» قال أحمد :
وهذه تؤيد قراءة ابن مروان هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ بالنصب. وقد قال سيبويه فيها : احتبى ابن مروان في لحنه ، أى تمكن. وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم اللّه وجهه ، فلا بد من التماس المحمل الصحيح لها وليس ذلك ببعيد إن شاء اللّه فنقول : لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن نحن» على طريقة :
أنا أبو النجم وشعري شعري
ونحو : أنا أنا وأنت أنت. لم يكن في فصاحته مقال : وقد علمت أن معنى أنا أنا : أى أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى عن ذكرها ، فلا بعد والحالة هذه في حذف الخبر ، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظا ، وراحة من تكرار اللفظ بعينه ، والسياق يرشد إلى المحذوف ، وإذا كان كذلك فقول القائلين لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ معناه : ونحن نحن ، ولكن استغنوا عن الخبر للسر الذي ذكرناه ، فقولهم : نَحْنُ كلام تام بالتقدير بالمذكور ، فلا غرو في وقوع الحال بعده ، وهذا بعينه يجرى في قوله

اقْتُلُوا يُوسُفَ من جملة ما حكى بعد قوله : إذ قالوا ، كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وقيل : الآمر بالقتل شمعون ، وقيل : دان ، والباقين كانوا راضين ، فجعلوا آمرين أَرْضاً أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد : سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ وقيل يَخْلُ لَكُمْ يفرغ لكم من الشغل بيوسف مِنْ بَعْدِهِ من بعد يوسف ، أى من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا قَوْماً صالِحِينَ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه.

أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه. أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم. وتَكُونُوا إمّا مجزوم عطفاً على يَخْلُ لَكُمْ أو منصوب بإضمار «أن والواو» بمعنى مع ، كقوله وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ.

[سورة يوسف (12) : آية 10]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10)

قائِلٌ مِنْهُمْ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا. وهو الذي قال ، فلن أبرح الأرض.

قال لهم : القتل عظيم أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. قال المنخل : وَإِنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِى غَيَابَتِى فَسِيرُوا بِسَيْرِى فِى الْعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ «1»

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها. وقرئ غيابات ، على الجمع. وغيابات ، بالتشديد. وقرأ الجحدري : غيبة. والجب : البئر لم تطو ، لأن الأرض تجبّ جباً لا غير يَلْتَقِطْهُ يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق. وقرئ : تلتقطه. بالتاء على المعنى ، لأنّ بعض السيارة سيارة ، كقوله : كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ «2»

(1). للمنخل. والغيابة : ما غاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه. يقول : وإن غيبتني مقبرتى ، كناية عن موته ، فسيروا بسيرى ، أى فانعونى وسيروا بذكر خصالى ، على عادة العرب إذا مات منها رئيس. ويحتمل أنه يوصى أقاربه بالخير ، وأنهم يسيرون بمثل سيره ، ويفعلون كفعله في جيرانه وقرابته.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ومنه : ذهبت بعض أصابعه إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم ، فهذا هو الرأى.

[سورة يوسف (12) : الآيات 11 إلى 12]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ(12)

ما لَكَ لا تَأْمَنَّا قرئ بإظهار النونين ، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام. و : تيمنا : بكسر التاء مع الإدغام. والمعنى: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة «1» وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعاد به في حفظه منهم. وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه يَرْتَعْ نتسع في أكل الفواكه وغيرها. وأصل الرتعة : الخصب والسعة. وقرئ : نرتع ، من ارتعى يرتعى. وقرئ : يرتع ويلعب ، بالياء ، ويرتع ، من أرتع ماشيته. وقرأ العلاء بن سيابة : يرتع بكسر العين ، ويلعب ، بالرفع على الابتداء. فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب؟ قلت : كان لعبهم الاستباق والانتضال ، ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو ، بدليل قوله إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وإنما سموه لعباً لأنه في صورته.

[سورة يوسف (12) : آية 13]

قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13)

لَيَحْزُنُنِي اللام لام الابتداء ، كقوله إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سببى المضارعة. اعتذر إليهم بشيئين ، أحدهما : أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه «2» برعيهم ولعبهم ، أو قلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم. وقيل : رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره ، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة ، وفي أمثالهم : «البلاء موكل بالمنطق». وقرئ الذِّئْبُ بالهمزة على الأصل وبالتخفيف. وقيل : اشتقاقه من «تذاءبت الريح» إذا أتت من كل جهة.

(1). قوله «ما يدل على خلاف النصيحة والمقة» أى المحبة. وقد ومقه يمقه ، بالكسر فيهما : أى أحبه ، فهو وامق ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «اعتذر لهم بأمرين : أحدهما حزنه لمفارقته ، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه ... الخ» قال أحمد : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه. وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل ، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه ، والله أعلم.

[سورة يوسف (12) : آية 14]

قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14)

القسم محذوف تقديره : والله لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ واللام موطئة للقسم. وقوله إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط ، والواو في وَنَحْنُ عُصْبَةٌ واو الحال : حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب - إنهم إذاً لقوم خاسرون ، أى هالكون ضعفا وخوراً وعجزاً.

أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم. أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدّمار ، وأن يقال : خسرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون.

وقيل : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها. فإن قلت : قد اعتذر إليهم بعذرين ، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قلت : هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرّين «1» فأعاروه آذاناً صما ولم يعبئوا به.

[سورة يوسف (12) : آية 15]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15)

أَنْ يَجْعَلُوهُ مفعول أَجْمَعُوا من قولك : أجمع الأمر وأزمعه فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ.

وقرئ : في غيابات الجب : قيل هو بئر بيت المقدس. وقيل : بأرض الأردنّ. وقيل : بين مصر ومدين. وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب. وجواب «لما» محذوف. ومعناه : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العداوة وأخذوا يهنونه ويضربونه ، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب ، حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح : يا أبتاه ، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء ، فقال يهوذا : أما أعطيتمونى موثقاً ألا تقتلوه فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده ، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ، ردّوا علىّ قميصي أتوارى به ، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك ، ودلوه في البئر ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى ، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام.

(1). قوله «و يذيقهم الأمرين» الأمرين - بنون الجمع - : الدواهي ، كذا بهامش. وفي الصحاح : الأمران : الفقر والهرم. وفيه أيضاً : الأمر : المصارين يجتمع فيها الفرث. قال الشاعر :

فلا تهد الأمر وما يليه ولا تهدن معروق العظام
وقال أبو زيد : لقيت منه الأمرين ، بنون الجمع : وهي الدواهي اه (ع)

ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف ، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ قيل أُوحى إليه في الصغر كما أُوحى إلى يحيى وعيسى : وقيل كان إذ ذاك مدركا. وعن الحسن : كان له سبع عشرة سنة لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وإنما أُوحى اليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ، ويبشر بما يؤول إليه أمره. ومعناه : لتتخلصن مما أنت فيه ، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنك يوسف لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك ، وبعد حالك عن أوهامهم ، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال ، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب ، وقلتم لأبيكم : أكله الذئب ، وبعتموه بثمن بخس. ويجوز أن يتعلق وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بقوله وَأَوْحَيْنا على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة ، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له. وقرئ : لننبئنهم ، بالنون على أنه وعيد لهم. وقوله وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ متعلق بأوحينا لا غير.

[سورة يوسف (12) : الآيات 16 إلى 17]

وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17)

وعن الحسن : عشيا ، على تصغير عشىّ. يقال : لقيته عشيا وعشياناً ، «1» وأصيلا وأصيلاناً ورواه ابن جنى: عشى ، بضم العين والقصر. وقال عشوا من البكاء. وروى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت ، فقال له الشعبي : يا أبا أمية ، أما تراها تبكى؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة : ولا ينبغي لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية. وروى أنه لما سمع صوتهم «2» فزع وقال : ما لكم يا بنىّ؟ هل أصابكم في غنمكم شي ء؟ قالوا : لا. قال : فما لكم وأين يوسف؟ قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أى نتسابق ، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل : والارتماء والترامي ، وغير ذلك. والمعنى. نتسابق في العدو أو في الرمي.

(1). قوله «يقال : لقيته عشياً وعشياناً» وهذا لو حذفت نونه صار عشيا ، كقراءة الحسن. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «روى أنه لما سمع أصواتهم قال : يا بنى ، هل أصابكم في غنمكم شي ء؟ قالوا لا .. الخ» قال أحمد : وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولا.
أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وكثيرا ما الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

وجاء في التفسير : ننتضل بِمُؤْمِنٍ لَنا بمصدّق لنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ، لشدّة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، غير واثق بقولنا؟

[سورة يوسف (12) : آية 18]

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18)
بِدَمٍ كَذِبٍ ذى كذب. أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته. ونحوه :

فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ

وقرئ ، كذباً. نصباً على الحال ، بمعنى : جاءوا به كاذبين ، ويجوز أن يكون مفعولا له.

وقرأت عائشة رضى اللّه عنها : كدب ، بالدال غير المعجمة ، أى كدر. وقيل : طرى ، وقال ابن جنى : أصله من الكدب ، وهو الفوف «1» البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث. كأنه دم قد أثر في قميصه. روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وزلّ عنهم أن يمزقوه. وروى أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى

(1). قوله «و هو الفوف البياض» عبارة الصحاح : الفوف البياض الذي يكون في أظفار الأحداث اه ، فجعل البياض خبرا عن الفوف وتفسيرا له ، فلعله هنا : أى البياض. (ع)
(2). أخرجه الطبري من طريق حيان بن أبى حثلة قال : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال : «صبر لا شكوى فيه. من بث لم يصبر» هذا مرسل.

وقيل : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت. وقيل : سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى اللّه تعالى إليه : يا يعقوب أتشكوني؟ قال : يا رب. خطيئة فاغفرها لي وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ أى أستعينه عَلى احتمال ما تَصِفُونَ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

[سورة يوسف (12) : آية 19]

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19)
وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر ، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب ، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة. وقيل : كان ماؤها ملحاً. فعذب حين ألقى فيه يوسف فَأَرْسَلُوا رجلا يقال له مالك ابن ذعر الخزاعي ، ليطلب لهم الماء. والوارد : الذي يرد الماء ليستقى للقوم يا بُشْرى نادى البشرى ، كأنه يقول : تعالى ، فهذا من آونتك. وقرئ : يا بشراى ، على إضافتها إلى نفسه. وفي قراءة الحسن وغيره : يا بشرى ، بالياء مكان الألف ، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة ، وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم : يا سيدي ومولىّ. وعن نافع: يا بشراى بالسكون ، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه ، إلا أن يقصد الوقف. وقيل : لما أدلى دلوه أى أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون ، فقال : يا بشراى هذا غُلامٌ وقيل : ذهب به ، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به وَأَسَرُّوهُ الضمير للوارد وأصحابه : أخفوه من الرفقة. وقيل : أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب ، وقالوا لهم : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. وبِضاعَةً نصب على الحال ، أى : أخفوه متاعا للتجارة. والبضاعة : ما بضع من المال للتجارة ، أى قطع وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ لم يخف عليه أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أو : واللّه عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

[سورة يوسف (12) : آية 20]

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

وَشَرَوْهُ وباعوه بِثَمَنٍ بَخْسٍ مبخوس ناقص عن القيامة نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص العيار دَراهِمَ لا دنانير مَعْدُودَةٍ قليلة «1» تعدّ عدّاً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقيه وهي الأربعون ، ويعدّون ما دونها. وقيل للقليلة معدودة ، لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها. وعن ابن عباس : كانت عشرين درهماً. وعن السدى : اثنين وعشرين وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن «2» لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالى بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن. ويجوز أن يكون معنى وَشَرَوْهُ واشتروه ، يعنى الرفقة من إخوته وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه. ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم :

[سورة يوسف (12) : آية 21]

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21)

الَّذِي اشْتَراهُ قيل هو قطفير أو أطفير ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف ، فملك بعده قابوس بن مصعب ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه اللّه العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى ، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف. وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين. وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه ، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وحريراً ،

(1). قال محمود : «المعدودة كناية عن القليلة ... الخ» قال أحمد : ومن التعبير عن القلة بالعدد : الدعوة المأثورة على الكفرة : «اللهم أحصهم عددا ، واستأصلهم بددا ولا تبق منهم أحدا» فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مرادا لأن اللّه تعالى أحصى كل شيء عددا وأحاط به علما ، فلا بد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة ، فلما كان كل قليل معدودا وكل كثير غير معدود ، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء. واللّه أعلم.
(2). قوله «فيبيعه بماطف من الثمن» أى قل. وفي الصحاح : الطفيف القليل. (ع)

فابتاعه قطفير بذلك المبلغ أَكْرِمِي مَثْواهُ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أى حسناً مرضياً ، بدليل قوله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا. ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به. واللام في لِامْرَأَتِهِ متعلقة بقال ، لا باشتراه عَسى أَنْ يَنْفَعَنا لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته. أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيما لا يولد له ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف ، فقال لامرأته أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ وأبو بكر حين استخلف عمر رضى اللّه عنهما. وروى أنه سأله عن نفسه ، فأخبره بنسبه فعرفه وَكَذلِكَ الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف مَكَّنَّا له ، أى : كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ كان ذلك الإنجاء والتمكين لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ على أمر نفسه : لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى. أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد اللّه ودبره وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كله بيد اللّه.

[سورة يوسف (12) : آية 22]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

قيل في الأشدّ : ثماني عشرة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون. وقيل : أقصاه ثنتان وستون حُكْماً حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه. وقيل : حكما بين الناس وفقها وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان أمره ، وأنّ اللّه آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه اللّه الحكمة في اكتهاله.

[سورة يوسف (12) : آية 23]

وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

المراودة : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ قيل : كانت سبعة.

وقرئ هَيْتَ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء ، وبناؤه كبناء أين ، وعيط. وهيت كجير وهيت كحيث. وهئت بمعنى تهيأت. يقال : هاء يهيء ، كجاء يجيء : إذا تهيأ. وهيئت لك. واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فللبيان «1» كأنه قيل : لك أقول هذا ، كما تقول : هلم لك مَعاذَ اللَّهِ أعوذ باللّه معاذاً إِنَّهُ إن الشأن والحديث رَبِّي سيدي ومالكي ، يريد قطفير أَحْسَنَ مَثْوايَ حين قال لك أكرمي مثواه ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الذين يجازون الحسن بالسيئ. وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم.

وقيل : أراد اللّه تعالى ، لأنه مسبب الأسباب.

[سورة يوسف (12) : آية 24]

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24)

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه. قال : هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمانَ تَبْكِي حَلَائِلُهْ «2» ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هما. أى ولا أكاد أن أفعله كيداً ، ولا أهم بفعله هماً ، حكاه سيبويه ، ومنه: الهمام وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه. وقوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ معناه. ولقد همت بمخالطته وَهَمَّ بِها وهمّ بمخالطتها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ، لأنّ قوله وَهَمَّ بِها يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت اللّه ، معناه لولا أنى خفت اللّه. فإن قلت :

(1). قوله «و أما في الأصوات فللبيان» في الصحاح : هيت به وهوت به ، أى صاح به ودعاه. وفيه أيضا قولهم «هيت لك» أى هلم لك وفيه. هلم يا رجل - بفتح الميم - : بمعنى تعالى. (ع)

(2). لعمير بن ضابئ البرجمي ، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال : عزمت على قتل عثمان ولم أقتله ، وكدت أن أفعل وليتني قتلته. وكنى عن ذلك بقوله : «تركت على عثمان تبكى حلائله» وهو من باب التنازع. وأصله : تركت على عثمان حلائله تبكى فجعل حلائله فاعلا. وحذف مفعول تركت الأول لعلمه من الكلام ، ولأنه فضلة وهي لا تضمر في هذا الباب. والمعنى ليتني قتلته فصيرت نساءه تبكى عليه ، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين : أنا شيخ ضعيف ، وخرج اسمى في هذا البعث ، فاقبل ابني بديلا عنى فقبله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد : أيها الأمير ، هذا هو الذي فعل بعثمان كذا وكذا ، فقال : ردوه على ، فقال له :

أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بديلا يوم الدار؟ إن في قتلك صلاحا ، يا حرسى ، اضربا عنقه.

أمير الحرسي بقتله وخاطبه خطاب المثنى على لغة الحرس الذين نسب المخاطب إليهم هذا. وقيل : إن القصة مع ضابئ نفسه ، وأن عثمان كان حبسه في هجوه بنى نهشل ، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك.

كيف جاز على نبىّ اللّه أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قلت : المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه «1» ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان اللّه المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدّته لما كان صاحبه ممدوحا عند اللّه بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته. ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه اللّه بأنه من عباده المخلصين. ويجوز أن يريد بقوله وَهَمَّ بِها وشارف أن يهم بها ، كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف اللّه ، يريد مشارفة القتل ومشافهته «2». كأنه شرع فيه فإن قلت : قوله وَهَمَّ بِها داخل تحت حكم القسم في قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ أم هو خارج منه؟ قلت : الأمران جائزان ، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ويبتدئ قوله وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ وفيه أيضا إشعار بالفرق بين الهمين. فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدما؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض.

وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز ، فإن قلت : فلم جعلت «لولا» متعلقة بهمّ بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني ، فلا بدّ من تقدير المخالطة

(1). قوله «و قرمه» أى شدة شهوته ، أفاده الصحاح.
(2). قوله «مشافهته» لعله : ومشابهته.

وقيل : ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ ، وقيل : صيح به : يا يوسف ، لا تكن كالطائر: كان له ريش ، فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ فلم ينصرف ، ثم رأى فيها وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا فلم ينته ، ثم رأى فيها وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فلم ينجع فيه ، فقال اللّه لجبريل عليه السلام : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل : رأى تمثال العزيز. وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحيى منه أن يرانا. فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحيى من السميع البصير ، العليم بذوات الصدور. وهذا ونحوه. مما يورده أهل الحشو والجبر «1» الذين دينهم بهت اللّه تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد اللّه بسبيل ، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب. وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسمى مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوّة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من اللّه الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار ، فأخزى اللّه أولئك في إيرادهم ما يؤدّى إلى أن يكون إنزال اللّه السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء اللّه ، في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها ، وفي أن ينهاه ربه بثلاث كرّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبه ، حتى يتداركه اللّه بجبريل وبإجباره.

ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقى بأدنى ما لقى به نبى اللّه مما ذكروا ،

(1). قوله مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت اللّه تعالى» يريد بهم أهل السنة ، ويريد بأهل العدل المعتزلة. وبهت الشخص : نسبه إلى قبيح لم يفعله ، ولولا أن ذلك دائر بين السلف لما أوردوه. (ع)

لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك. فيا له من مذهب ما أفحشه ، ومن ضلال ما أبينه كَذلِكَ الكاف منصوب المحل ، أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه. أو مرفوعه ، أى الأمر مثل ذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ من خيانة السيد وَالْفَحْشاءَ من الزنا إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصوا دينهم للّه ، وبالفتح. الذين أخلصهم اللّه لطاعته بأن عصمهم.

ويجوز أن يريد بالسوء. مقدّمات الفاحشة ، من القبلة والنظر بشهوة ، ونحو ذلك. وقوله مِنْ عِبادِنَا معناه بعض عبادنا ، أى : هو مخلص من جملة المخلصين. أو هو ناشئ منهم ، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ.

[سورة يوسف (12) : الآيات 25 إلى 29]

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29)

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وتسابقا إلى الباب على حذف الجارّ وإيصال الفعل ، كقوله وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا» نفر منها يوسف ، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. فإن قلت : كيف وحد الباب ، وقد جمعه في قوله وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ؟ قلت : أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل «1» يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ اجتذبته من خلفه فانقد ، أى انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه وَأَلْفَيا سَيِّدَها وصادفا بعلها وهو قطفير ، تقول المرأة لبعلها : سيدي.

وقيل : إنما لم يقل سيدهما ، لأنّ ملك يوسف لم يصح ، فلم يكن سيداً له على الحقيقة. قيل : ألفياه مقبلا يريد أن يدخل. وقيل جالساً مع ابن عمّ للمرأة.

(1). قوله «فراشة القفل» هو ما ينشب فيه. يقال أقفل فأفرش. (ع)

لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها «1» جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها : وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف ، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها ، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعا. ألا ترى إلى قولها وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ و«ما» نافية ، أى : ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية ، بمعنى : أى شيء جزاؤه إلا السجن ، كما تقول : من في الدار إلا زيد. فإن قلت : كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف ، وإنه أراد بها سوءا «2» قلت : قصدت العموم ، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل : العذاب الأليم الضرب بالسياط. ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال : هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ولولا ذلك لكتم عليها وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قيل كان ابن عمّ لها ، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه. وقيل : هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق. وقيل : كان ابن خال لها صبيا في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى» «3»

(1). قوله «إذ لم يؤاتها» في الصحاح : وتقول آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاوعته. والعامة تقول: وأتيته. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت : لم قالت ما قالت غير مصرحة بذكر يوسف ... الخ»؟ قال أحمد : أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها : هذا أراد بى سوءاً ولذلك أيضا كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد ، وإبعاد للتهمة عنها بتوقى ما يشعر منها بالتبرج والقحة ، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال : قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ولم تقل : إنه قوى أمين ، حياء من التعيين وحشمة وخفراً ، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء ، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر ، والله أعلم.
(3). أخرجه الحاكم وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة والبزار وأبو يعلى. والطبري والبيهقي في السادس عشر من الشعب كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه «لما أسرى بى مرت رائحة طيبة - الحديث» فيه قصة الماشطة ، وفي آخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تكلم في المهد أربعة ، وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم» وفي الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه «لم يتكلم في المهد إلا أربعة وهم صغار : عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون» وذكره بلفظ ثلاثة. وذكر الثالث ابن المرأة التي ألقيت في النار. فخشيت على ولدها فكلمها» وفي الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا : «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبى كان يرضع فمر رجل راكب على دابة - الحديث» اقتصر الطيبي على هذا الأخذ فلم يصب ، وبهذا الاعتبار صاروا خمسة. وروى الثعلبي عن الضحاك أنهم ستة زادهم يحيى بن زكريا. [.....]

فإن قلت : لم سمى قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ «1» قلت : لما أدّى مؤدّى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمى شهادة : فإن قلت : الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت : لأنها قول من القول ، أو على إرادة القول ، كأنه قيل : وشهد شاهد فقال إن كان قميصه. فإن قلت : إن دل قدّ قميصه

قلت : من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع. والثاني : أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه «2».

(1). قال محمود : «إن قلت لم سمى قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة ... الخ»؟ قال أحمد : مهما قدره من ذلك في اتباعه لها ، يحتمل مثله في اتباعها له ، فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون اجتذبها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها ، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبته حتى صارا متقابلين ، ثم جذبت قميصه إليها من قبل ، بل هاهنا أظهر ، لأن الموجب لقد القميص غالبا الجذب لا الدفع.

(2). عاد كلامه. قال : «و الثاني أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فينقد» قال أحمد : وهذا بعينه محتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قميصه في إسراعه للفرار ، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك. والحق - والله ولى التوفيق - أن الشاهد المذكور إن كان صبيا في المهد كما ورد في بعض الحديث ، فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه ، حتى لو قال : صدق يوسف وكذبت ، لكفى برهانا على صدقه عليه السلام ، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهانا على صدق مريم ، فلا تبقى المناسبة بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها ، لأن العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها ، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري. فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل ، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعا فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ووثوقا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة التهمة التي خشي أن تنطرق إليه في حق موسى عليه السلام ، ووثوقا بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع. فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة.

ومن ثم قال بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ولم يقل : كل ما يعدكم تعريضا بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن بخسه حقه ، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم. فقصد هذا الشاهد الأمارة الآخرة فقط.

والمناسبة فيها محققة. وأما الأمارة الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم. فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين ، وإنما هي كالفرض والتقدير والله أعلم. وكأنه قال : إن كان قميصه قدمن قبل فهي صادقة.

لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة ، فعلق صدقها على محال وهو وجود قده من قبل حالة ، فهذا التقرير هو الصواب والحق اللباب ، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره كما ورد في بعض التفاسير ، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم. وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها ، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه ، والله أعلم.

وقرئ : من قبل ، ومن دبر ، بالضم على مذهب الغايات. والمعنى : من قبل القميص ومن دبره. وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل ، ومن جهة يقال لها دبر. وعن ابن أبى إسحاق أنه قرأ : من قبل ومن دبر بالفتح ، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث. وقرئا «1» بسكون العين. فإن قلت : كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان»؟ قلت : لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ ، ونحوه كقولك : إن أحسنت إلىّ فقد أحسنت إليك من قبل ، لمن يمتن عليك بإحسانه ، تريد : إن تمتن علىَّ أمتنَّ عليك فَلَمَّا رَأى يعنى قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها قالَ إِنَّهُ إن قولك ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً «2» أو إنّ الأمر وهو طمعها في يوسف مِنْ كَيْدِكُنَّ الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال ، إلا أنّ النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة. ولهنّ في ذلك نيقة «3» ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البواتق «4» وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان ، لأنّ الله تعالى يقول إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً وقال للنساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله أَعْرِضْ عَنْ هذا الأمر واكتمه ولا تحدّث به وَاسْتَغْفِرِي أنت لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال : خطئ ، إذا أذنب متعمداً ، وإنما قال مِنَ الْخاطِئِينَ بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الإناث ، وما كان العزيز إلا رجلا حليما. وروى أنه كان قليل الغيرة.

(1). قوله «و قرئا» أى : قبل ودبر ، وقوله «بسكون العين» : أى الباء. (ع)

(2). قال محمود : «الضمير راجع إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ... الخ» قال أحمد : وفيما قاله هذا العالم نظر ، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير محكي. وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز ، ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحا له ، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه ، وأيضا فان كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلا لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفا بالنسبة إليه. ألا ترى أول الآية الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً وأيضاً فان الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيد هن أعظم من كيده ، والله أعلم.

(3). قوله «نيقة» اسم للتأنق في الأمر. أفاده الصحاح. (ع)

(4). قوله «مع غيرهن من البوائق» أى الدواهي. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة يوسف (12) : الآيات 30 إلى 32]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)

وَقالَ نِسْوَةٌ وقال جماعة من النساء وكنّ خمسا : امرأة الساقي ، وامرأَة الخباز ، وامرأَة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب. والنسوة : اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث. وفيه لغتان : كسر النون وضمها فِي الْمَدِينَةِ في مصر امْرَأَتُ الْعَزِيزِ يردن قطفير ، والعزيز : الملك بلسان العرب فَتاها غلامها. يقال : فتاي وفتأتي ، أى غلامى وجاريتي شَغَفَها خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب.
قال النابغة : وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجٌ مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ «1»

(1) وقد حال هم دون ذلك والج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبى قابوس في غير كنهه أتانى ودوني راكش فالضواجع
النابغة ، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون ، أى وقد حال هم دون التغزل في المحبوبة وغيره من اللذات «والج» داخل مكان الشغاف. ويروى «و لوج الشغاف» أى كولوجه ، والشغاف : داء في القلب جهة اليمين تخرجه الأطباء بأصابعهم ، فتبتغيه الأصابع : من صفته على أنه حال منه. وقيل : حجاب القلب ، أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، فتبتغيه : صفة للهم ، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق المكنية والابتغاء تخييل ، ثم إنه شبه الهم المعقول بمحسوس وبالغ في ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه في القلب ، أو تلمسه وتريد إخراجه. وبين الهم بقوله : وعيد النعمان أبى قابوس وتهديده حال كونه في غير كنه وحقيقته ، أى : لم يبلغني بكماله. أو لأنه بلا سبب حصل منى ، بل افترى الوشاة على كذباً جاءني. ودوني :
أمامى هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة ، ومع ذلك أدركنى الخوف أو بعد المسافة ، دلالة على غضب الملك عليه غضباً شديداً.

وقرئ : شعفها ، بالعين ، من شعف البعير إذا هنأه «1» فأحرقه بالقطران ، قال :

كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطّالِى «2»

وحُبًّا نصب على التمييز فِي ضَلالٍ مُبِينٍ في خطإ وبُعدٍ عن طريق الصواب بِمَكْرِهِنَّ باغتيابهنّ وسوء قالتهنّ ، وقولهنّ : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى ومقتها ، وسمى الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحالى غيبة ، كما يخفى الماكر مكره. وقيل : كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ دعتهنّ. قيل : دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ما يتكئن عليه من نمارق ، قصدت بتلك الهيئة وهي فعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ : أن يدهشن «3» ويبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها ، لأن المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ، فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ ، فتبكتهنّ بالحجة ، ولنهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر ، وتوهمه أنهنّ يثبن عليه. وقيل : متكأ : مجلس طعام لأنهم كانوا يتكؤن للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، ولذلك «نهى أن يأكل الرجل متكئا» «4» وآتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل مُتَّكَأً طعاما ، من قولك اتكأنا عند فلان : طعمنا «5» ، على سبيل الكناية ، لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكئ عليها. قال جميل :

(1). قوله «إذا هنأه» في الصحاح «هنأت البعير» إذا طليته بالهناء. وهو القطران. (ع)
(2) أتقتلني وقد شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالى
لامرئ القيس ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد ، أو للتعجب. وشعف الجمل : إذا أحرقه بالقطران المغلي على النار ، وهنأه : دهنه بذلك القطران ، فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق ، ثم أريد منه الإحراق بالعشق مجازاً مرسلا ليصح التشبيه في قوله : كما أحرق الإبل المدهونة الداهن لها. وإن كان شغفت بالغين المعجمة فالمعنى :
أصبت شغاف قلبها بالحب ، وهو حجاب القلب أو لسانه أو حبة سوداء في وسطه ، كما شغف : أى أخاف الإبل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها. لأنها تخافه في الأول. وقيل : شبه حبها باستلذاذ الإبل لذلك الطلى بعد دهنها به.
(3). قوله «يدهشن» أى يتحيرن. أفاده الصحاح. (ع)
(4). من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأكل أحدنا بشماله وبأن يأكل متكئاً» وفي الطبري من حديث ابن مسعود «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعتين» ومنكحين - إلى أن قال : وأما المطعمان فأن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح. وأن يأكل متكئا ، إسناده جيد. وله في

أخرجه البزار بلفظ «نهى أن نأكل متكئين».
(5). قوله «طعمنا» لعله «أى طعمناه». (ع)

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَلِهْ «1»

وعن مجاهد مُتَّكَأً طعاما يحزّ حزّا ، كأن المعنى يعتمد بالسكين ، لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين. وقرئ متكا بغير همز. وعن الحسن : متكاء بالمدّ ، كأنه مفتعال ، وذلك لإشباع فتحة الكاف ، كقوله «بُمْنتَزاحِ» «2» بمعنى بمنتزح. ونحوه «بَيْنَباعُ» «3» بمعنى ينبع. وقرئ : متكا وهو الأترج ، وأنشد :

فَأَهْدَتْ مَتْكَةً لِبَنِى أَبِيهَا تَخُبُّ بِهَا العَثَمْثَمَةُ الْوِقَاحُ «4»

وكانت أهدت أترجة على ناقة ، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين ، وحملا كالعدلين على جمل. وقيل : الزماورد «5» وعن وهب : أترجا وموزاً وبطيخا.

وقيل : أعتدت لهنَّ ما يقطع ، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه. وقرأ الأعرج : مُتَّكَأً مفعلا ، من تكئ يتكأ ، إذا اتكأ أَكْبَرْنَهُ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق.

قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «مررت بيوسف الليلة التي عرج بى إلى السماء ، فقلت لجبريل : من هذا؟

فقال يوسف» فقيل : يا رسول اللّه ، كيف رأيته؟ قال «كالقمر ليلة البدر «6»» وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس من الماء عليها.

---

(1). لحميد بن ثور. وقيل لجميل بن معمر. وظل يظل من باب علم. يقول : فظللنا في نعمة أو ملتبسين بنعمة.
واتكأنا : أصله اوتكأنا فتاؤه الأولى واو : أى اتخذنا متكأ اضطجعنا عليه ، وشربنا الشراب الحلال يمنى النبيذ ، من قلله : جمع قلة ، وهي الجرة العظيمة. ففي ذكر القلل دلالة على التوسع في الشرب وعدم التحجر فيه.
(2). قوله «بمنتزاح» هو من قول الشاعر :
وأنت من الغوائل حين ترمى وعن ذم الرجال بمنتزاح
والبيت لابن هرمة يرثى ابنه. والغوائل : الحوادث التي تغتال النفوس وتهلكها. ونزح : إذا بعد ، والمنتزح : اسم لمكان البعد ، وأشبعت فتحته فتولدت منها الألف كقولهم : ينباع في ينبع ، وعقراب في عقرب. [.....]
(3). قوله «ينباع» هو من قول الشاعر :
ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكدم
وقد مر شرح هذا البيت في سورة الأعراف بهذا الجزء صفحة 122 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(4). المتكة : الأترجة ، وكأنه التي ذكر أبو داود في سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة. والخبب : نوع من السير. والعثمثمة : الصلبة : والوقاح - بالفتح - : شديدة وقع الخف على الأرض.
(5). قوله «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم. (ع)
(6). أخرجه الثعلبي من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولا.

وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف. وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وقيل : ورث الجمال من جدّته سارة. وقيل : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت. يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله : خَفِ اللّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِى الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ «1»

قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها حاشَ كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول : أساء القوم حاشا زيد. قال : حَاشَا أَبِى ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ضَنًّا عَنِ المَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ «2» وهي حرف من حروف الجر ، فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى «حاشا اللّه» براءة اللّه وتنزيه اللّه ، وهي قراءة ابن مسعود ، على إضافة حاشا إلى اللّه إضافة البراءة. ومن قرأ : حاشا للّه ، فنحو قولك : سقيا لك ، كأنه قال : براءة ، ثم قال : للّه ، لبيان من يبرأ وينزه.

والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر : قراءة أبى السمال : حاشَ بِلَّهِ ، بالتنوين. وقراءة أبى عمرو حاشَ بِلَّهِ بحذف الألف الآخرة. وقراءة الأعمش حاشَ بِلَّهِ بحذف الألف الأولى.

وقرئ حاشَ بِلَّهِ بسكون الشين ، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط ، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حدّه. وقرئ : حاشا الإله. فإن قلت : فلم جاز في حاشا للّه أن لا ينوّن بعد إجرائه مجرى : براءة للّه؟ قلت : مراعاة لأصله الذي هو الحرفية. ألا ترى إلى قولهم :

(1). لأبى الطيب ، يقول : اتق اللّه واستر هذا الجمال الذي في وجهك ببرقع ، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق، أى خيار النساء وهن في خدورهن ، لما ينظرن من جمالك. ولاح يلوح : ظهر يظهر.
(2) حاشا أبى ثوبان إن أبا ثوبان ليس ببكمة فدم
عمرو بن عبد اللّه إن به ضنا عن الملحاة والشتم
للمنقذ بن الطماح وهو الجميح الأسدى. وحاشا : كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها ، كسبحان اللّه. ويجوز أنها حاشا الاستثنائية ، وهي حرف جر عند الأكثر. ورواه الضبي : حاشا أبا ثوبان بالنصب ، فهو فعل ، واحتمال لغة القصر ضعيف لشهرة لغة الإعراب بالحروف. وعلى الأول فبناؤها لمشابهتها للحرفية لفظا ومعنى.
وبكم الرجل - كتعب - : إذا عجز عن الكلام. وقدم كسهل وظرف ، إذا عجز عن الحجة كأن فمه مسدود.
والضن - بالكسر - : البخل. والملحاة : مفعلة ، من لحاه إذا لامه. واللحاء - كالرداء - مفاعلة من اللحن والعذل ، من لحوت العود إذا قشرته. وتكرير أبى ثوبان لتعظيمه والتنويه باسمه ، ليس ببكمة بالضم ، أى ذى بكمة ، أى :
ليس بأبكم ، ولا قدم : أى عاجز عن الكلام. وعمرو : قيل إنه بدل من أبى ثوبان ، فقوله : إن أبا ثوبان الخ :
جملة اعتراضية مبينة لوجه التنزيه. وفي قوله : إن به ضنا ، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذة اللئام. والمعنى : إن به امتناعا وتنزها عن اللؤم والشتم.

جلست من عن يمينه ، كيف تركوا «عن» غير معرب على أصله؟ وعلى «1» في قوله «غدت من عليه» منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟ والمعنى : تنزيه اللّه تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله. وأما قوله حاشَ بِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ما هذا بَشَراً نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه «2» ، لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن اللّه عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما ، وما ركز ذلك فيها إلا لأنّ الحقيقة كذلك ، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، ولا أجمع للخير من الملائكة ، إلا ما عليه الفئة الخاسئة «3» المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك ، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق ، وجحودهم للعلوم الضرورية ، ومكابرتهم في كل باب ، وإعمال «ما» عمل «ليس» هي اللغة القدمى الحجازية «4» وبها ورد القرآن. ومنها قوله تعالى ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ومن قرأ على سليقته من بنى تميم ، قرأ «بشر» بالرفع. وهي في قراءة ابن مسعود. وقرئ : ما هذا بشرى ، أى ما هو بعبد مملوك لئيم إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ تقول هذا بشرى ، أى حاصل بشرى ، بمعنى : هذا مشرى. وتقول : هذا لك بشرى أم بكرى؟

والقراءة هي الأولى ، لموافقتها المصحف ، ومطابقة بشر لملك قالَتْ فَذلِكُنَّ ولم تقل فهذا وهو حاضر «5» ، رفعاً لمنزلته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، وربئاً بحاله واستبعاداً لمحله.

(1). قوله «على أصله وعلى في قوله» عطفه يحتاج إلى تكلف ، أى : وإلى قوله غدت من عليه بعد مأتم ظمؤها كيف ترك على في قوله. ويمكن أن التقدير : ألا ترى إلى قولهم الخ وعلى في قوله أى : وألا ترى على ... الخ. (ع)
(2). قال محمود : «نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه ... الخ» قال أحمد : تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً ، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه المشافهات ، يرمى بها أهل الحق فينسب إليهم الإجبار والخسار والمكابرة في الضروريات وجحد الحقائق تعكيساً ، وهذا كله هم برآء منه ، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه في اعتقاد أن تفضيل الملك عند قائله ليس ضروريا ولا عقلياً نظريا ، ولكن سمعياً ، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع ، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق ، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات : ما هذا بشرا. وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً ، فما ركز فيها حب الشهوات وإيثار العاجلة وجميع أمهات. الذنوب مركوز في الطباع ، أفيكون ذلك حقاً إلا عند ناظر بعين الهوى ، أعشى في سبيل الهدى ، واللّه ولى التوفيق.
(3). قوله «إلا ما عليه الفئة الخاسئة» يريد أهل السنة ، وقد أساء في تعصبه للمعتزلة فعفا اللّه عنه. (ع)
(4). قوله «ليس هي اللغة القدمى الحجازية» بمعنى القديمة ، لكن لم يذكرها في الصحاح. (ع)
(5). قال محمود : «لم لم تقل فهذا وهو حاضر ... الخ» قال أحمد : وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة الم ذلِكَ الْكِتابُ لما جعل الاشارة إلى الحروف المذكورة فقال : إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد ، وأجاب هو بأن كل متقض بعيد ، وأجبت أنا بأن الاشارة بذلك إلى بعيد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب اللّه تعالى.

ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنىّ بقولهنّ : عشقت عبدها الكنعانى. تقول : هو ذلك العبد الكنعانى الذي صوّرتن في أنفسكنّ ، ثم لمتنني فيه. تعنى : أنكن لم تصوّرنه بحق صورته ، ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتننى في الافتتان به. الاستعصام : بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد

[سورة يوسف (12) : الآيات 33 إلى 34]

قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)

وقرئ السِّجْنُ بالفتح ، على المصدر. وقال يَدْعُونَنِي على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً ، لأنهنّ تنصحن له وزيّن له مطاوعتها ، وقلن له : إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار ، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال : ربِّ نزولُ السجن أحبّ إلى من ركوب المعصية. فإن قلت : نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قلت : كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منهما ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته ، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر ، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أمل إليهنّ. والصبوة : الميل إلى الهوى. ومنها : الصبا ، لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها. وقرئ : أصب إليهنّ ، من الصبابة مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين لا يعملون بما يعلمون. لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء ، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح. وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء ، لأنّ قوله وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف السَّمِيعُ لدعوات الملتجئين إليه الْعَلِيمُ بأحوالهم وما يصلحهم.

[سورة يوسف (12) : آية 35]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

بَدا لَهُمْ فاعله مضمر ، لدلالة ما يفسره عليه وهو : ليسجننه ، والمعنى : بدا لهم بداء ، أى : ظهر لهم رأى ليسجننه ، والضمير في لَهُمْ للعزيز وأهله مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه في الذروة والغارب «1» وكان مطواعة لها وجميلا ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أو عدته به ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، أو لطمعها في أن يذله السجن ويسخره لها. وفي قراءة الحسن : لتسجننه ، بالتاء على الخطاب : خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه ، أو العزيز وحده على وجه التعظيم حَتَّى حِينٍ إلى زمان ، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه. وفي قراءة ابن مسعود : عتى حين ، وهي لغة هذيل. وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقرأ «عتى حين» فقال : من أقرأك؟ قال : ابن مسعود. فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيا وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام.

[سورة يوسف (12) : آية 36]

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

«مع» يدل على معنى الصحبة واستحداثها. تقول : خرجت مع الأمير ، تريد مصاحبا له ، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له فَتَيانِ عبدان للملك : خبازه وشرابيه : رقى إليه أنهما يسمانه ، «2» فأمر بهما إلى السجن ، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام إِنِّي أَرانِي يعنى في المنام ، وهي حكاية حال ماضية أَعْصِرُ خَمْراً يعنى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه. وقيل : الخمر - بلغة عمان - : اسم للعنب. وفي قراءة ابن مسعود : أعصر عنبا مِنَ الْمُحْسِنِينَ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أمى : يجيدونها ، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن

(1). قوله «و قتلها منه في الذروة» أى دورانها من وراء خديعته. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «رقى إليه أنهما يسمانه» في الصحاح : رقى إليه الكلام ترقية ، أى : رفع إليه. (ع)

رؤياه فيؤوّلها له ، فقالا له ذلك. أو من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم.

أو من المحسنين إلى أهل السجن. فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روى أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه ، وإذا أضاق وسع له ، وإذا احتاج جمع له. وعن قتادة : كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا. اصبروا تؤجروا ، إنّ لهذا لأجرا ، فقالوا : بارك اللّه عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك ، فمن أنت يا فتى؟ قال ، أنا يوسف ابن صفىّ اللّه يعقوب ابن ذبيح اللّه إسحاق ابن خليل اللّه إبراهيم ، فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك ، ولكنى أحسن جوارك ، فكن في أى بيوت السجن شئت. وروى أن الفتيين قالا له إنا لنحبك من حين رأيناك ، فقال : أنشد كما باللّه أن لا تحبانى ، فو اللّه ما أحبنى أحد قط إلا دخل علىّ من حبه بلاء ، لقد أحبتنى عمتي فدخل علىّ من حبها بلاء ، ثم أحبنى أبى فدخل علىّ من حبه بلاء ، ثم أحبتنى زوجة صاحبي فدخل علىّ من حبها بلاء ، فلا تحبانى - بارك اللّه فيكما - وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي ، إنى أرانى في بستان ، فإذا بأصل حبلة «1» عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فقطفتها وعصرتها في كأس الملك ، وسقيته. وقال الخباز : إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ؟ قلت : إلى ما قصا عليه. والضمير يجرى مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل : نبئنا بتأويل ذلك.

[سورة يوسف (12) : الآيات 37 إلى 38]

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38)

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترص ذلك «2» فوصل به وصف نفسه بما هو فوق

(1). قوله «فإذا بأصل حبلة» في الصحاح «الحبلة» بالضم : ثمر العضاه. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك والحبلة - بالتحريك - : القضيب من الكرم. وفيه أيضا : سلة الخبز معروفة. (ع) [.....]
(2). قوله «افترص ذلك» أى اتخذه فرصة ، أى نوبة وحظا ونصيبا ، أفاده الصحاح. (ع)

علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك باللّه ، وهذه طريقة على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة ، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك ، فيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية بِتَأْوِيلِهِ ببيان ماهيته وكيفيته ، لأنّ ذلك بشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ذلِكُما إشارة لهما إلى التأويل ، أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي وأوحى به إلىّ ولم أقله عن تكهن وتنجم إِنِّي تَرَكْتُ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وأن يكون تعليلا لما قبله. أى علمني ذلك وأوحى إلىّ ، لأنى رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفية ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء.

ويجوز أن يكون فيه تعريض بما منى به من جهتهم حين أودعوه السجن ، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته ، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبىّ يوحى إليه ، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله ما كانَ لَنا ما صحّ لنا معشر الأنبياء أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ أى شيء كان من ملك أو جنىّ أو إنسىّ ، فضلا أن نشرك به صنما

[سورة يوسف (12) : الآيات 39 إلى 40]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40)

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ يريد يا صاحبيَّ في السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : يا سارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، ونحوه قولك لصاحبيك : يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق ، ولا تريد أنهما صحبا الصدق ، ولكن كما تقول رجلا صدق ، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك. ويجوز أن يريد : يا ساكني السجن ، كقوله أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ يريد التفرّق في العدد والتكاثر. يقول أأن تكون لكما أرباب شتى ، يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا خَيْرٌ لكما أم أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية ، بل هو الْقَهَّارُ الغالب ، وهذا مثل ضربه لعبَادة الله وحده ولعبادة الأصنام ما تَعْبُدُونَ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر إِلَّا أَسْماءً يعنى أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها. ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها. يقال : سميته بزيد ، وسميته زيداً ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أى بتسميتها مِنْ سُلْطانٍ من حجة إِنِ الْحُكْمُ في أمر العبادة والدين إِلَّا لِلَّهِ ثم بين ما حكم به فقال أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الثابت الذي دلت عليه البراهين.

[سورة يوسف (12) : آية 41]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)

أَمَّا أَحَدُكُما يريد الشرابي فَيَسْقِي رَبَّهُ سيده. وقرأ عكرمة : فيسقى ربه ، أى يسقى ما يروى به على البناء للمفعول. روى أنه قال للأوّل : ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ، وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه ، وقال للثاني : ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل قُضِيَ الْأَمْرُ قطع وتم ما تَسْتَفْتِيانِ فيه من أمر كما وشأنكما. فإن قلت : ما استفتيا في أمر واحد ، بل في أمرين مختلفين ، فما وجه التوحيد؟ قلت : المراد بالأمر ما اتهما به من سمّ الملك وما سجنا من أجله ، وظنا أنّ ما رأياه في معنى ما نزل بهما ، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك ، فقال لهما : قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ، أى : ما يجرّ إليه من العاقبة ، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر. وقيل : جحدا وقالا : ما رأينا شيئاً ، على ما روى أنهما تحالما له ، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

[سورة يوسف (12) : آية 42]

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ الظانّ هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابي ، ويكون الظَّنّ بمعنى اليقين اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ صنفني عند الملك بصفتى ، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشنى من هذه الورطة فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ فأنسى الشرابي ذِكْرَ رَبِّهِ أن يذكره لربه. وقيل فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره بِضْعَ سِنِينَ البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين. فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟ قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان ، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره. وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها. فإن قلت : ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل

قلت : كما اصطفى اللّه تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلى ببلاء إلا إلى ربه ،

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة في أثناء حديث.
(2). متفق عليه من طريق عبد اللّه بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ «أرق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات ليلة. فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة. قال : وسمعت صوت السلاح فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال سعد بن أبى وقاص : يا رسول اللّه جئت أحرسك. فقالت عائشة فنام حتى سمعت غطيطه» وغفل الحاكم فاستدركه.

ولا يعتضد إلا به ، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً ، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا. وعن الحسن أنه كان يبكى إذا قرأها ويقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

[سورة يوسف (12) : آية 43]

وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (43)

لما دنا فرج يوسف ، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته : رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس. وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان. ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها سِمانٍ جمع سمين وسمينة ، وكذلك رجال ونسوة كرام. فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سِمانٍ صفة للميز وهو بَقَراتٍ دون المميز وهو سَبْعَ وأن يقال : سبع بقرات سمانا؟ قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات. فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ. ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن. فإن قلت : هلا قيل : سبع عجاف على الإضافة؟

قلت ، التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده. فإن قلت : فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب. قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها : صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجر في غيرها. ألا تراك لا تقول : عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ. فإن قلت : ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه.

ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات؟ قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ، وقد وقع الاستغناء بقولك سَبْعٌ عِجافٌ عما تقترحه من التمييز بالوصف. والعجف : الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع «عجاف» جمعا «لعجفاء» وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال : حمله على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض. فإن قلت : هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؟ قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ، ويكون قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ بمعنى وسبعاً أخر. فإن قلت : هل يجوز أن يعطف قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ فيكون مجرور المحل؟ قلت : يؤدى إلى تدافع ، وهو أن عطفها على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ يقتضى أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة ، ولفظ الأخر يقتضى أن تكون غير السبع ، بيانه : أنك تقول : عندي سبعة رجال قيام وقعود ، بالجرّ ، فيصح ، لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود ، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارَا «2»

[سورة يوسف (12) : آية 44]

قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44)

أَضْغاثُ أَحْلامٍ تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان.

وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد : ضغث ، فاستعيرت لذلك ،

(1). قوله «آخر عرضه وهو عبره» في الصحاح : «عبر النهر ، وعبر شطره وجانبه. (ع)
(2). أنشده المبرد في كتابه. والرؤيا - بالألف : مصدر رأى المنامية ، ويقل مجيئه بالتاء. ومصدر البصرية بالعكس ، وعبرت الرؤيا - بالتخفيف وبالتضعيف كما هنا - : ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها ، إذا ذكرت مآلها ومرجعها. والأحلام : جمع حلم بالضم ، وهو ما يراه النائم. والعبار : مبالغة في المعبر أو في العابر ، واللام تزاد في المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر ، أو بكونه فرعا عن الفعل ، وقد اجتمع الأمران هاهنا فزيدت اللام.

والإضافة بمعنى «من» أى أضغاث من أحلام. والمعنى : هي أضغاث أحلام. فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد ، فلم قالوا : أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة ، تزيدا في الوصف ، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان ، فجعلوه أضغاث أحلام. ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة «1» خاصة ، فيقولوا : ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير «2».

[سورة يوسف (12) : آية 45]

وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45)

قرئ وَادَّكَرَ بالدال وهو الفصيح. وعن الحسن : واذكر ، بالذال المعجمة. والأصل : تذكر ، أى تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه بَعْدَ أُمَّةٍ بعد مدّة طويلة ، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه ، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلي بَعْدَ أُمَّةٍ بكسر الهمزة ، والإمّة النعمة. قال عدى :

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ «3»

(1). قال محمود : «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات ... الخ» قال أحمد : وهذا هو الظاهر ، وحمل الكلام على الأول يصيره من وادى :
على لا حب لا يهتدى بمناره
كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا. وقول الفتى : أنا أنبئكم بتأويله - إلى قوله - لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون : دليل أيضاً على ذلك ، والله أعلم.
(2). قوله «بنحارير» جمع نحرير وهو العالم المتقن ، كما في الصحاح. (ع)

(3) أين كسرى كسرى الملوك أبو سا سان بل أين قبله سابور
ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فأولت به الصبا والدبور
لعدي بن زيد. وكسرى وساسان وسابور : أسماء ملوك وساسان : هو أبو الأكاسرة. ويروى : أنو شروان ، بدل أبو ساسان ، فهو كلمة واحدة. وكسرى الثاني بدل من الأول ، مضاف لما بعده ، كما يقال : ملك الملوك ، وهو فارسى معرب ، وأصله خسرو ، فغيرته العربية. وإن كان عربيا مأخوذا من الكسر ، فالمعنى أنه كان يكسر شوكة الملوك ، وما بعد عطف بيان له وقيله متعلق بمحذوف حال من سابور وفي «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما. وثم - بالفتح - ظرف خبر لمحذوف أى هم ثم. وإن ضمت فهي عاطفة على محذوف ، أى أفلحوا ثم بعد الفلاح ، أى البقاء أو الفوز والملك. وروى بدله «الرشد». والامة - بالكسر - : النعمة ، وبالضم : الجيش العظيم. وارتهم : أى سترتهم قبورهم في ذلك المكان ، كناية عن موتهم ، فيدفنون في باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها ، ثم شبههم بالورق الذي جف فاختلفت به الصبا والدبور ، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا ، فألوت بمعنى التوت ، أو بمعنى : أوقعت به إلى ، يعنى تطاول بهم الزمان حتى تفتت عظامهم وصارت كذلك.

أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ بَعْدَ أُمَّةٍ بعد نسيان «1». يقال : أمه يأمه أمها ، إذا نسى. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ «2» أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ أنا أخبركم به عمن عنده علمه.

وفي قراءة الحسن : أنا آتيكم بتأويله فَأَرْسِلُونِ فابعثونى إليه لأسأله ، ومرونى باستعباره.

وعن ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة.

[سورة يوسف (12) : آية 46]

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

المعنى فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه فقال يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أيها البليغ في الصدق ، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل ، ولذلك كلمه كلام محترز فقال لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لأنه ليس على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا. أو معنى لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

[سورة يوسف (12) : الآيات 47 إلى 49]

قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(49)

تَزْرَعُونَ خبر في معنى الأمر ، كقوله : تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاب المأمور به ، فيجعل كأنه يوجد ، فهو يخبر عنه.

والدليل على كونه في معنى الأمر قوله فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ. دَأَباً بسكون الهمزة وتحريكها ، وهما مصدرا : دأب في العمل ، وهو حال من المأمورين ، أى دائبين : إمّا على تدأبون دأباً ، وإمّا على إيقاع المصدر حالا ، بمعنى: ذوى دأب فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ لئلا يتسوس. وَيَأْكُلْنَ

(1). قوله «قرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أى بعد. (ع)
(2). قوله «و من قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر ، وهو الإثم. أفاده الصحاح. (ع)

من الإسناد المجازى : جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ تُحْصِنُونَ تحرزون وتخبؤن يُغاثُ النَّاسُ من الغوث أو من الغيث. يقال : غيثت البلاد ، إذا مطرت. ومنه قول الأعرابية : غثنا ما شئنا.

يَعْصِرُونَ بالياء والتاء : يعصرون العنب والزيتون والسمسم. وقيل : يحلبون الضروع.

وقرئ : يعصرون ، على البناء للمفعول ، من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثة. ويجوز أن يكون المبنى للفاعل بمعنى ينجون ، كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم ، أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً

فإن قلت : معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب ، وإلا لم توصف بالانتهاء ، فلم قلت إنّ علم ذلك من جهة الوحى؟ قلت : ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلا. وقوله فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ تفصيل لحال العام ، وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

[سورة يوسف (12) : الآيات 50 إلى 51]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك ، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف «1» به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون «2» إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه.

وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، قال عليه السلام :

(1). قال محمود : «إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك لتظهر براءة ساحته عما قرف به ... الخ» قال أحمد : ولقد مدحه النبي صلى اللّه عليه وسلم على هذه الأناة بقوله : ولو لبثت في السجن بعض ما لبثت يوسف لأجبت الداعي ، وكان في طيّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم من أنه هم بزليخا هما يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصير فيه وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه ، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر ، واللّه أعلم.
(2). قوله «عما قرف به الخ» أى اتهم به. والتسلق : التوسل. (ع)

«من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم «1»» ومنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه - «هي فلانة» «2» اتقاء للتهمة ، وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - واللّه يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث ، لأسرعت الإجابة «3» وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ، إن كان لحليما ذا أناة». وإنما قال : سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن ، لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث «4» حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ النِّسْوَةِ بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه : أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ إِنَّ رَبِّي إنّ اللّه تعالى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا اللّه ، لبعد غوره. أو استشهد بعلم اللّه على أنهنّ كدنه ، وأنه بريء مما قرف به. أو أراد الوعيد لهنّ ، أى : هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه ما خَطْبُكُنَّ ما شأنكنّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أى ثبت واستقرّ وقرئ حَصْحَصَ على البناء للمفعول ، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته «5» للإناخة.

(1). يأتى في الأحزاب.
(2). متفق عليه من حديث على بن الحسين عن صفية بنت حيي قالت : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعتكف فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت فانقلبت فقام معى ليقلبنى. وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار. فلما رأياه أسرعا. فقال : على رسلكما ، إنما صفية - الحديث» [.....]
(3). أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة بهذا بدون قوله «إن كان لحليما ذا أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزي عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه وزاد : ولولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن حتى يبتغى الفرج من عند غير اللّه - يعنى قوله اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله «إن كان لحليما ذا أناة» فأخرج الطبري من رواية أبى إسحاق عن رجل لم يسم عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «يرحم اللّه يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا ، إن كان لحليما ذا أناة» ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد اللّه ابن أبى بكر عن الزهري وعن الأعرج عن أبى هريرة.

(4). قوله «و فص الحديث» في الصحاح «فص الأمر» مفصله. (ع)
(5). قوله «ألقى ثفناته للاناخة» هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما ، كذا في الصحاح. (ع)

قال فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفَنَاتِهِ وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا «1»

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة «2» واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهنّ خصومه. وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال. وقالت المجبرة والحشوية «3» نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

[سورة يوسف (12) : آية 52]

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52)

ذلِكَ لِيَعْلَمَ من كلام يوسف ، «4» أى ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بظهر الغيب في حرمته. ومحل بِالْغَيْبِ الحال «5» من الفاعل أو المفعول ، على معنى : وأنا غائب عنه خفى عن عينه أو وهو غائب عنى خفى عن عينى. ويجوز أن يكون ظرفا ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة وَليعلم أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ لا ينفذه ولا يسدّده ، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ، وبه في خيانته أمانة اللّه حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه. ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى اللّه كيده ولا سدّده.

(1). لحميد بن ثور يصف بعيرا بأنه ألقى في الحجارة الصلبة أعضاءه التي يبرك عليها عند الاناخة ، والصم جمع صماء أو أصم أى صلب. وناء : أى قام متثاقلا بسلمى محبوبتى نوأة ونهضة واحدة لم يتردد ، ثم صمم وعزم على السير. وروى أن سمرة بن جندب أتى برجل عنين ، فاشترى له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة ، فلما أصبح قال له : ما صنعت؟ قال : فعلت حتى حصحصت فيه ، فسألها فقالت : لم يصنع شيئا. فقال : دخل سبيلها.
(2). قال محمود : «لا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن ... الخ» قال أحمد : الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعا ، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل. وذهب منهم طائفة مع القدرية إلى تجويز الصغائر عليهم ، بشرط أن لا تكون منفرة. والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به ، وإن الوقف عند قوله هَمَّتْ بِهِ ثم يبتدأ وَهَمَّ بِها. لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كما تقول. قتلت زيداً لولا أننى أخاف اللّه ، فلا يكون الهم واقعا لوجود المانع منه ، وهو رؤية البرهان. فان كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم ، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة ، فشأنه وإياهم.
(3). قوله و«قالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ندق في فروة» يريد أهل السنة وقوله نحن قد بقي لنا الخ يعنى أن حالهم في تفسير الهم والبرهان يمثل بذلك. والفروة : جلدة الرأس. (ع)
(4). عاد كلامه. قال : «و قوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ الخ : من كلام يوسف عليه السلام والمعنى أن ذلك الجد في ظهور البراءة ليعلم ... الخ» قال أحمد : وإرادته لعموم الأحوال أدخل في تنزيهه ، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه والتبري من تزكية النفس ، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة واللّه أعلم.
(5). قوله «و محل بالغيب الحال من الفاعل» لعله محل الحال أو النصب على الحال. (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 53]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

ثم أراد أن يتواضع للّه ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكيا وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً ، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» «1» وليبين أنّ ما فيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق اللّه ولطفه وعصمته فقال وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي من الزلل ، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها. ولا يخلو، إمّا أن يريد في هذه الحادثة ، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم. وإمّا أن يريد به عموم الأحوال إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أراد الجنس ، أى إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إلا البعض الذي رحمه ربى بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون ما رَحِمَ في معنى الزمن ، أى : إلا وقت رحمة ربى ، يعنى أنها أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان ، إلا وقت العصمة. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً ، أى : ولكن رحمة ربى هي التي تصرف الإساءة ، كقوله وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً وقيل معناه : ذلك ليعلم أنى لم أخنه لأنّ المعصية خيانة. وقيل : هو من كلام امرأة العزيز ، «2»

(1). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، دون قوله «و لا فخر» وذكره بإثباتها أبو نعيم في الدلائل ، من رواية سهيل عن أبيه عنه في أثناء حديث. ورواه ابن أبى عاصم في الآداب له من حديث عائشة بإثباتها. وأخرجه ابن حبان من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص وواثلة وأبى بكر الصديق. ورواه الترمذي من رواية أبى نضرة عن أبى سعيد بلفظ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» الحديث وقال : حسن. ورواه بعضهم عن أبى نضرة ابن عامر. وهو عند أحمد وأبى يعلى وأبى نعيم والبيهقي في الدلائل. وهما من طريق أبى نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره. ولحديث ابن عباس طريق آخر أخرجها الدارقطني في الأفراد من رواية خارجة بن مصعب. وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأخرى عن ابن مردويه في أثناء حديث الاسراء بإسناد واه. وفي الباب عن عبادة بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع وعن أنس عن البزار. وفيه مبارك بن سحيمة. وهو متروك ، وعند أبى يعلى وفيه زيادة بن ميمون البختري وعن عبد اللّه بن سلام أخرجه أبو يعلى والطبراني من رواية بشر بن شفاف عنه. وهو معلول. والمحفوظ عن بشر بن شفاف عن عبد اللّه بن عمرو. وعن جابر أخرجه الحاكم. وفيه القاسم بن محمد بن عبد اللّه بن عقيل. وهو متروك.

(2). عاد كلامه. قال : «و قيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أى ذلك الذي قلت ... الخ» قال أحمد : وإنما يجرى الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج ، كقوله فَما ذا تَأْمُرُونَ إذ لا يمكن جعله من قول الملأ بوجه ، فتعين أنّ يصرف الضمير عنه إلى فرعون. وأما هذه الآية فهي تتلو قوله وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في لِيَعْلَمَ على العزيز وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا ، وذلك قوله قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك ، وأنه لما تحتمت براءته بقولها بعث يخرجه من السجن ، فذلك قوله وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي.

(480/2)

أى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنى لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته «1» وقلت «جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها - إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربى : إلا نفساً رحمها اللّه بالعصمة كنفس يوسف إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت. فإن قلت : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟

قلت : كفى بالمعنى دليلا قائدا «2» إلى أن يجعل من كلامه. ونحوه قوله قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ثم قال فَما ذا تَأْمُرُونَ وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم. وعن ابن جريج : هذا من تقديم القرآن وتأخيره ، ذهب إلى أن ذلِكَ لِيَعْلَمَ متصل بقوله فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ولقد لفقت المبطلة «3» روايات مصنوعة ، «4» فزعموا أن يوسف حين قال أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، وقالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت اللّه ورسله «5».

[سورة يوسف (12) : آية 54]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)

يقال استخلصه واستخصه ، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به فَلَمَّا كَلَّمَهُ وشاهد منه ما لم يحتسب قالَ أيها الصديق إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ ذو مكانة ومنزلة أَمِينٌ مؤتمن على كل شيء. روى أنّ الرسول جاءه فقال : أحب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله : اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات.

وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى «6» وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثيابا جدداً»

(1). قوله «حين قرفته» أى اتهمته. (ع)

(2). قوله «دليلا قائداً» أى مؤديا. (ع)

(3). قوله «و لقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة» يريد أهل السنة الذين سماهم المجبرة فيما مر. (ع)

(4). عاد كلامه. قال : «و لقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة ... الخ» قال أحمد : ولقد صدق في التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة ، كما لفقت القدرية على قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقاً أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها وتقول : يا ابن النساء الحيض طمعت في رؤية رب العزة ، كل ذلك ليتم لهم غرضهم في أنه طلب محالا في العقول على اللّه تعالى ، ويحق اللّه الحق بكلماته ويبطل الباطل ، واللّه الموفق. [.....]

(5). قوله «و ذلك لتهالكهم على بهت اللّه ورسله» أى اتهامهم بما لم يفعله. أفاده الصحاح. (ع)

(6). قوله «البلوى» عبارة النسفي البلواء. (ع)

فلما دخل على الملك قال : اللهمّ إنى أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان؟ قال : لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصدّيق ، إنى أحب أن أسمع رؤياى منك. فقال : رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفا ، وقال له : من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء «2» ، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

[سورة يوسف (12) : آية 55]

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55)

اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ولنى خزائن أرضك إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف ، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام اللّه تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أنّ أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه اللّه لا لحب الملك والدنيا. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «رحم اللّه أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك ، سنة «3» فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم : وعن قتادة. هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه. وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر اللّه ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق. فله أن يستظهر به. وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع.

[سورة يوسف (12) : آية 56]

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)

(1). قوله «و لبس ثيابا جددا» في الصحاح : جديد وجدد ، كسرير وسرر. (ع)
(2). قوله «أن تجمع الطعام في الأهراء» كذا عبارة النسفي أيضا ولكنه ليس في الصحاح بل الذي فيه هرأه البرد بهرأه هرأ أى أشتد عليه حتى كاد يقتله وهرئ المال وهرئ القوم فهم مهرؤون اه فأصل الاهراء مواضع يشتد فيها البرد. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه ، وهذا إسناد ساقط

وَكَذلِكَ ومثل ذلك التمكين الظاهر مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في أرض مصر. روى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ قرئ بالنون والياء ، أى : كل مكان أراد أن يتخذه منزلا ومتبوّأ له ، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه. روى أنّ الملك توّجه ، وختمه بخاتمه ، ورداه بسيفه. ووضع له سريراً من ذهب مكللا بالدرّ والياقوت. روى أنه قال له : أمّا السرير فأشدّ به ملكك. وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك، وأمّا التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائي. فقال : قد وضعته إجلالا لك وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير ودانت له الملوك ، وفوّض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعده ، فزوّجه الملك امرأته زليخا ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء ، فولدت له ولدين : إفراثيم وميشا ، وأقام العدل بمصر ، وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وباع من أهل مصر في سنى القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ، ثم بالحلى والجواهر ، ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ، فقالوا : واللّه ما رأينا كاليوم ملكا أجلّ ولا أعظم منه ، فقال للملك : كيف رأيت صنع اللّه بى فيما خوّلنى فما ترى؟ قال : الرأى رأيك : قال : فإنى أشهد اللّه وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم. ورددت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر ، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين بِرَحْمَتِنا بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم مَنْ نَشاءُ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أن نأجرهم في الدنيا.

[سورة يوسف (12) : آية 57]

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لهم. قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا ، وما له في الاخرة من خلاق ، وتلا هذه الآية.

[سورة يوسف (12) : آية 58]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58)

لم يعرفوه لطول العهد «1» ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان

(1). قال محمود : «إنما أنكروه لبعد العهد وتغيير الصورة ... الخ» قال أحمد : وتوارد القادمين في دخولهم عليه ومعرفته لهم عند ذلك ، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة ، والله أعلم.

عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر ، مشرياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأنّ الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف. وقيل : رأوه على زيّ فرعون «1» عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج ، فما خطر ببالهم أنه هو. وقيل : ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج ، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذلك ، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمّل ويتفطن. وعن الحسن : ما عرفهم حتى تعرّفوا له.

[سورة يوسف (12) : الآيات 59 إلى 60]

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60)

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ أى أصلحهم بعدّتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاءوا من الميرة. وقرئ بِجَهازِهِمْ بكسر الجيم قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ لا بد من مقدمة سبقت له معهم ، حتى اجتر القول هذه المسألة. روى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانيّة قال لهم : أخبرونى من أنتم وما شأنكم؟ فإنى أنكركم. قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، فقال ، لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا : معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدّيق نبى من الأنبياء ، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا كنا اثنى عشر ، فهلك منا واحد. قال : فكم أنتم هاهنا؟

قالوا : عشرة. قال : فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذي تقولون حق؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم ، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون - وكان أحسنهم رأيا في يوسف - فخلفوه عنده ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم وَلا تَقْرَبُونِ فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون داخلا في حكم الجزاء مجزوماً ، عطفا على محل قوله فَلا كَيْلَ لَكُمْ كأنه قيل : فإن لم تأتونى به تحرموا ولا تقربوا ، وأن يكون بمعنى النهى.

(1). قوله «و قيل رأوه على زى فرعون» إن أريد فرعون موسى ، فلم يكن قد وجد. وعبارة الخازن : زى ملوك مصر عليه ثياب الخ. (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 61]

قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61)

سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ سنخادعه عنه ، وسنجتهد ونحتال حتى تنتزعه من يده وَإِنَّا لَفاعِلُونَ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايى به. أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

[سورة يوسف (12) : آية 62]

وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

لِفِتْيانِهِ وقرئ «لفتيانه» وهما جمع فتى ، كإخوة وإخوان في أخ ، و«فعلة» للقلة.

و«فعلان» للكثرة ، أى لغلمانه الكياليين لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرّم بإعطاء البدلين إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ وفرغوا ظروفهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وكانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل : تخوّف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به. وقيل : لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً. وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها.

وقيل : معنى لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعلهم يردّونها.

[سورة يوسف (12) : آية 63]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63)

مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ يريدون قول يوسف فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندي ، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل نَكْتَلْ نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه. وقرئ «يكتل» بمعنى يكتل. أخونا ، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

[سورة يوسف (12) : آية 64]

قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)

هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ يريد أنكم قلتم في يوسف وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ كما تقولونه في أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك. ثم قال فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم. وحافِظاً تمييز ، كقولك : هو خيرهم رجلا، ولله درّه فارساً. ويجوز أن يكون حالا.

وقرئ «حفظا» وقرأ الأعمش : فالله خير حافظ. وقرأ أبو هريرة : خير الحافظين وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأرجوا أن ينعم علىّ بحفظه ولا يجمع علىّ مصيبتين.

[سورة يوسف (12) : آية 65]

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)

وقرئ رُدَّتْ إِلَيْنا بالكسر ، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء ، كما في : قيل وبيع ، وحكى قطرب ضرب زيد. على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ما نَبْغِي للنفي ، أى : ما نبغى في القول ، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه ، وكانوا قالوا له : إنا قدمنا على خير رجل ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبتغى شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان. أو على الاستفهام ، بمعنى أى شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود. ما تبغى ، بالتاء على مخاطبة يعقوب ، معناه : أى شيء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى. وقوله هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نَبْغِي والجمل بعدها معطوفة عليها ، على معنى : إن بضاعتنا ردّت إلينا ، فنستظهر بها وَنَمِيرُ أَهْلَنا في رجوعنا إلى الملك وَنَحْفَظُ أَخانا فما يصيبه شيء مما تخافه ، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أو ساق أباعرنا ، فأى شيء نبتغى وراء هذه المباغى

ويجوز أن يراد : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا ، ثم قالوا : هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع ، بياناً لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه ، وهو وجه حسن واضح ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يعنون : ما يكال لهم ، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير ، أى ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه. ويجوز أن يكون من كلام يعقوب ، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد ، كقوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ «1»

[سورة يوسف (12) : آية 66]

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ مناف حالى «2» - وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله ، أراد أن يحلفوا له بالله : وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد. وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه لَتَأْتُنَّنِي بِهِ جواب اليمين ، لأن المعنى : حتى تحلفوا لتأتننى به إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ إلا أن تغلبوا «3» فلم تطيقوا الإتيان به. أو إلا أن تهلكوا. فإن قلت : أخبرنى عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟ قلت : أَنْ يُحاطَ بِكُمْ مفعول له ، والكلام المثبت الذي هو قوله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ في تأويل النفي. معناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أى : لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة : وهي أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده ، فلا بد من تأويله بالنفي. ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم : أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت ، تريد : ما أطلب منك إلا الفعل عَلى ما نَقُولُ من طلب الموثق وإعطائه وَكِيلٌ رقيب مطلع.

(1). قوله «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جواز كونه من كلام يعقوب ، لأن المعنى يؤدى إليه ، كما جاز في قوله تعالى ذلِكَ لِيَعْلَمَ كونه من كلام يوسف ، لأن المعنى يقود إليه ، فتدبر. (ع)

(2). قال محمود : «معناه أن إرساله معكم مناف ... الخ» قال أحمد : لن للنفي المؤكد. وأما قول الزمخشري في المنافاة له ، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علما ، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى ، على أن قوله تعالى لَنْ تَرانِي معناه أن الرؤية منافية لحالي ، وجعل هذه المنافاة من مقتضى لَنْ ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت ، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى لَنْ وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(3). عاد كلامه. قال : «و قوله لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ معناه إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان ... الخ» قال أحمد : وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي ، لأن المستثنى منه مسكوت عنه ، والنفي عام ، إذ يلزم من نفى الإتيان مثلا نفى جميع العوارض اللاحقة به ضرورة ، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه ، ولا كذلك الإتيان ، فانه لا إشعار له بعموم الأحوال ، لأنه لا يتوقف إلا على أحدها ، والله أعلم. ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فان يعقوب عليه السلام قال أولا في حق يوسف : وأخاف أن يأكله الذئب ، فابتلى من ناحية هذا القول. وقال هاهنا ثانياً : إلا أن يحاط بكم ، أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم ، وغلبوا عليه.

[سورة يوسف (12) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68)

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة ، «1» اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود ، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال هؤلاء أضياف الملك ، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان ، وما أحقهم بالإكرام ، لأمر مّا أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه ، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة ، فيعانوا

(1). قوله «كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة اشتهرهم» في الصحاح : الشارة : اللباس والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر ، أى وضح. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس. (ع)
(2). قوله «ليتميز المحققون من أهل الحشو» إن كان مراده أهل السنة ، فهم يقولون : تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات ، كربط النار بالإحراق ، فالسبب مؤثر في الظاهر ، والله هو الفاعل في الحقيقة. قال النسفي :
وأنكر الجبائي العين اه وهو من مشايخ المعتزلة. (ع)
(3). أخرجه البخاري وأصحاب السنن من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه.
(488/2)

من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم إِلَّا حاجَةً استثناء منقطع ، على معنى : ولكن حاجة فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ يعنى قوله وَما أُغْنِي عَنْكُمْ وعلمه بأن القدر لا يغنى عنه الحذر.

[سورة يوسف (12) : آية 69]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69)

آوى إِلَيْهِ أَخاهُ ضم إليه بنيامين. وروى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة. فبقى بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً ، فأجلسه مع على مائدته وجعل يؤاكله ، قال : أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم.

رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال : من يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يوسف فَلا تَبْتَئِسْ فلا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس : تعرّف إليه. وعن وهب : إنما قال له : أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم.

وروى أنه قال له : أنا لا أفارقك. قال : قد علمت اغتمام والدي بى ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالا يجمل. قال : لا أبالى فافعل ما بدا لك. قال : فإنى أدس صاعي في رحلك ، ثم أنادى عليك بأنك قد سرقته ، ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم.

قال : افعل.

[سورة يوسف (12) : الآيات 70 إلى 72]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

السِّقايَةَ مشربة يسقى بها وهي الصواع. قيل : كان يسقى بها الملك ، ثم جعلت صاعا يكال به. وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها. وقيل : كانت إناء مستطيلا يشبه المكوك.

وقيل : هي المكوك الفارسي الذي يلتقى طرفاه تشرب به الأعاجم. وقيل : كانت من فضة مموّهة بالذهب ، وقيل كانت من ذهب. وقيل : كانت مرصعة بالجواهر ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ثم نادى مناد. يقال : آذنه أعلمه. وأذن : أكثر الإعلام. ومنه المؤذن ، لكثرة ذلك منه. روى : أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ، ثم قيل لهم ذلك.

والعير : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير : أى تذهب وتجيء. وقيل : هي قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير ، وأصلها فعل كسقف وسقف ، فعل به ما فعل ببيض وعيد «1» ، والمراد أصحاب العير كقوله : يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود : وجعل السقاية ، على حذف جواب لما ، كأنه قيل : فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه ، أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : تفقدون ، من أفقدته إذا وجدته فقيداً. وقرئ : صواع ، وصاع ، وصوع. بفتح الصاد وضمها ، والعين معجمة وغير معجمة وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ يقوله المؤذن ، يريد : وأنا بحمل البعير كفيل ، أُؤدّيه إلى من جاء به ، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله.

[سورة يوسف (12) : آية 73]

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (73)

تَاللَّهِ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم. وإنما قالوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ فاستشهدوا بعلمهم. لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتى مجيئهم ومداخلتهم للملك ، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة «2» ، لئلا تتناول زرعا أو طعاماً لأحد من أهل السوق.

ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم وَما كُنَّا سارِقِينَ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا.

[سورة يوسف (12) : الآيات 74 إلى 75]

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)
فَما جَزاؤُهُ الضمير للصواع ، أى ، فما جزاء سرقته إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ في جحودكم

(1). قوله «ما فعل ببيض وعيد» لعله : وغيد ، بإعجام الغين ، وهو جمع غيداء أى ناعمة. أو أغيد ، بمعنى وسنان مائل العنق ، كذا في الصحاح ، فليحرر لفظ المصنف. (ع) [.....]
(2). قوله «و أفواه رواحلهم مكعومة» يقال : كعمت البعير ، إذا شددت فمه بالكعام ، وهو شيء يجعل في فم البعير عند هياجه ، كذا في الصحاح. (ع)

وادّعائكم البراءة منه قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ أى جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله ، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة ، فلذلك استفتوا في جزائه.

وقولهم فَهُوَ جَزاؤُهُ تقرير للحكم ، أى : فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير ، كقولك : حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فذلك حقه ، أى : فهو حقه لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه «1» ويجوز أن يكون جَزاؤُهُ مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر. والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : من أخو زيد؟ فيقول لك : أخوه من يقعد إلى جنبه ، فهو هو ، يرجع الضمير الأوّل إلى من ، والثاني إلى الأخ ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيما للمظهر مقام المضمر. ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدإ محذوف ، أى : المسئول عنه جزاؤه ، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كما يقول : من يستفتى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم ، ثم يقول : وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ.

[سورة يوسف (12) : آية 76]

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قيل : قال لهم من وكل بهم : لا بدّ من تفتيش أوعيتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال : ما أظنّ هذا أخذ شيئاً ، فقالوا : واللّه لا تتركه حتى تنظر في رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن : وعاء أخيه ، بضم الواو ، وهي لغة. وقرأ سعيد ابن جبير : إعاء أخيه ، بقلب الواو همزة. فإن قلت : لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ قلت:

قالوا رجع بالتأنيث على السقاية ، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث ، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا ، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية ، وفيما يتصل بهم منه صواعا كَذلِكَ كِدْنا مثل ذلك الكيد العظيم كدنا لِيُوسُفَ يعنى علمناه إياه وأوحينا به إليه ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تفسير للكيد وبيان له ، لأنه كان في دين ملك مصر ، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ ، لا أن يلزم ويستعبد إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ،

(1). قوله «من استحقاقه وتلزمه. ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ» سيذكر أن حكم السارق في دين ملك مصر : أن يغرم مثلي ما أخذ ، لا أن يلزم ويستعبد. (ع)

أى ما كان يأخذه إلا بمشيئة اللّه وإذنه فيه نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه. وقرئ : يرفع بالياء. ودرجات بالتنوين وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ فوقه أرفع درجة منه في علمه ، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم ، وهو اللّه عز وعلا. فإن قُلت : ما أذن اللّه فيه يجب أن يكون حسناً ، فمن أى وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ ، فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ؟ قلت : هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة ، لأنّ قوله إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف ، وقوله إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً ، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق. لكان له وجه ، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم : وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ليتخلص من جلدها ولا يحنث ، وكقول إبراهيم عليه السلام : هي أختي ، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد ، وقد علم اللّه تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

[سورة يوسف (12) : آية 77]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77)

أَخٌ لَهُ أرادوا يوسف. روى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء ، وأقبلوا عليه وقالوا له : ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسوّدت وجوهنا ، يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال : بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم.

واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة ، فقيل : كان أخذ في صباه صنما لجدّه أبى أمّه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق. وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه. وقيل : كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده ، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف - وهي عمته - بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه ، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها ، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحاق ، فانظروا من أخذها ، فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لي سلم أفعل به ما شئت ، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت فَأَسَرَّها إضمار على شريطة التفسير ، تفسيره أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وإنما أنث لأنّ قوله أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً جملة أو كلمة ، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً والمعنى : قال في نفسه :

أنتم شر مكاناً ، لأنّ قوله قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً بدل من أسرَّها. وفي قراءة ابن مسعود : فأسرَّه ، على التذكير ، يريد القول أو الكلام. ومعنى شَرٌّ مَكاناً أنتم شر منزلة في السرق ، لأنكم سارقون بالصحة ، لسرقتكم أحاكم من أبيكم وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخى سرقة ، وليس الأمر كما تصفون.

[سورة يوسف (12) : آية 78]

قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب ، وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر ، وأنّ بنيامين أحب إليه منهم ، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان ، «1» وأنه مستأنس بأخيه فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ فخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلينا فأتمم إحسانك. أو من عادتك الإحسان فاجْرِ على عادتك ولا تغيرها.

[سورة يوسف (12) : آية 79]

قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79)

مَعاذَ اللَّهِ هو كلام موجه ، ظاهره : أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده ، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ، وباطنه : إنّ اللّه أمرنى وأوحى إلىّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك ، فلو أخذت غير من أمرنى بأخذه كنت ظالماً وعاملا على خلاف الوحى. ومعنى مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ نعوذ باللّه معاذاً من أن نأخذ ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من. وإِذاً جواب لهم وجزاء ، «2» لأن المعنى : إن أخذنا بدله ظلمنا.

(1). قوله «قد هلك وهو عليه ثكلان» أى حزين أسيف على فقد ولده. (ع)
(2). قوله «و إذاً جواب لهم وجزاء» أى لقولهم فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ. (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 80]

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80)

اسْتَيْأَسُوا يئسوا. وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مرّ في استعصم. و«النجي» على معنيين : يكون بمعنى المناجى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا : وبمعنى المصدر الذي هو التناجي ، كما قيل النجوى بمعناه. ومنه قيل : قوم نجى ، كما قيل وَإِذْ هُمْ نَجْوى تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف. ويجوز أن يقال : هم نجى ، كما قيل : هم صديق ، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية. قال : إِنِّى إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ «1»

ومعنى خَلَصُوا اعتزلوا وانفردوا عن النسا خالصين لا يخالطهم سواهم نَجِيًّا ذوى نجوى ، أو فوجا نجياً ، أى مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً. وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً ، لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه يجدّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم ، على أىّ صفة يذهبون؟ وما ذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور كَبِيرُهُمْ في السنّ وهو روبيل. وقيل : رئيسهم وهو شمعون : وقيل : كبيرهم في العقل والرأى وهو يهوذا ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فيه وجوه : أن تكون «ما» صلة ، أى : ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم.
وأن تكون مصدرية ، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو مِنْ قَبْلُ ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم في يوسف.

(1) إنى إذا ما القوم كانوا أنجيه واضطرب القوم اضطراب الأرشيه
وشد فوق بعضهم بالأرويه هناك أوصينى ولا توصى بيه
من أبيات الحماسة. و«ما» زائدة. والأنجية. جمع نجى بمعنى المناجى ، كالسمير والجليس والعشير ، بمعنى المفاعل.
أو النجي : مصدر كالدوى والأزيز والنشيج والنئيج والصهيل ، كلها أنواع من الصوت ، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت : إنه جمع نجاء مصدر ناجاه ، كقتال مصدر قاتله لجاز ، وكان كالأرشية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء ، والأروية جمع رواء وهو حبل

قيل : أو فيهما أكون شجاعا صبوراً ، فأوصينى بغيري ولا توصى غيرى بيه. وظاهر البيت جواز الاخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك ، بل هو على التأويل كما ترى. والخطاب لمؤنثة. ويجوز : أنه لمذكر. وثبوت الياء في الفعلين للإشباع. والهاء في «بيه» للسكت. فهذا كناية عن شجاعته وتجلده. أو كناية عن كرمه على البعد.

أو النصب عطفاً على مفعول أَلَمْ تَعْلَمُوا وهو أَنَّ أَباكُمْ كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف ، وأن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أى قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ، ومحله الرفع أو النصب على الوجهين فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ فلن أفارق أرض مصر حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي في الانصراف إليه أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بالخروج منها ، أو بالانتصاف ممن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

[سورة يوسف (12) : آية 81]

ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81)

وقرئ سَرَقَ أى نسب إلى السرقة وَما شَهِدْنا عليه بالسرقة إِلَّا بِما عَلِمْنا من سرقته «1» وتيقناه ، لأنّ الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق «2». أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف. ومن قرأ سَرَقَ فمعناه : وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق ، وما كنا للغيب : للأمر الخفي حافظين ، أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر.

[سورة يوسف (12) : الآيات 82 إلى 83]

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83)

(1). قال : محمود «معناه وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقته ... الخ» قال أحمد : إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذا. وإما أن لا يكون كذلك ، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله لا يوجب علم كونه سارقا. وغايته أن يفيد ظناً بيناً ، فيكون المراد بالعلم هاهنا الظن. وقد ورد مثله ، ويكون قولهم وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ تنبيها على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال. وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم فليسوا يدعونه عليه.
(2). عاد كلامه. قال : «و قولهم وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ معناه : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ... الخ» قال أحمد : وإنما تلتئم القراءتان على التأويل الذي ذكرته ، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظنا بمقتضى ظاهر الحال ، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا : وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه. وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنتظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة علما. ومقتضى الثانية التبري من الجزم ، والله أعلم.

الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها هي مصر ، أى أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وأصحاب العير ، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من أهل صنعاء ، معناه : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ف قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أردتموه «1» وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم بِهِمْ جَمِيعاً بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالي في الحزن والأسف الْحَكِيمُ الذي لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

[سورة يوسف (12) : آية 84]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84)

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به يا أَسَفى أضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه ، والألف بدل من ياء الإضافة ، والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ، ونحوه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ ، وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ.

(1). قال محمود : «إن هذا شيء أردتموه ... الخ» قال أحمد : وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال ، كأن قائلا يقول : هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء ، وأما في هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءا ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً كما قال لهم أولا ، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط في الجواب فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قمن بإتمامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها ، وهي أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم ، وإلى ذلك وقعت الاشارة بقوله تعالى ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة اليه لا حرج فيه ، وخصوصا فيما يرجع إلى الوالد من الولد.
ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم ، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه ، فان كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محررة ، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصا على ثبوت السرقة عليه ، ويؤكد ذلك قولهم إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه ، والله أعلم. وقوله لهم بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفا لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول ، والله المستعان.

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ، مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لم تعط أمة من الأمم - إنا لله وإنا إليه راجعون - عند المصيبة إلا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم «1». ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع. وإنما قال يا أسفى» فإن قلت : كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً؟ قلت : هو دليل على تمادى أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طريا.

وَلَمْ تُنْسِنِى أَوْفَى الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ «2»

ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر. قيل : قد عمى بصره. وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفاً. قرئ من الحزن.

ومن الحزن ، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض ، فكأنه حدث من الحزن. قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف «3»؟ قال : وجد سبعين ثكلى. قال : فما كان له من الأجر؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط. فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال :

(1). أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعا وأخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد. ورواه عبد الرزاق من طريق الطبري عن الثوري عن سفيان عن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير أقول وكذا رواه البيهقي في الشعب من رواية أبى عامر عن الثوري قال : ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء.
(2) تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن العين ملآن مترع
فلم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكن نكأ القرح بالقرح أوجع
لهشام بن عقبة العذرى ، يرثى أخاه ذى الرمة ، واسمه غيلان بن عقبة. ويرثى أوفى بن دلهم. وقيل : يرثى أخويه.
يقول : تعزيت أى تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده ، أى نابني ما يوجب النسيان الأول ولم أنسه ، والحال أن جفن عينى ممتلئ بالدموع. أو المعنى : تكلفت التسلي فلم أقدر. ويقال : أترع الحوض إذا ملئ بالماء في المترع توكيد. ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والاتراع تخييل ، فلم تنسني أو في المصيبات التي أصابتنى بعده موت أخى غيلان ، ولكن زادتنى حزنا على حزنى. والقرح : الجرح إذا اندمل ويبست جلبته. والنكاء :
كشط تلك الجلبة. ويروى : ولكن نكأ بتشديد النون. والنكأ : التي منها وزن الضرب ، فشبه حال مصيبته الأولى التي طرأ عليها غيرها فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التمثيلية ، أى : ولكن نكأ القرح أوجع به من الحالة الأولى. وأظهر محل المضمر لإظهار التوجع والتفجع. أو المعنى : ولكن نكأ القرح الأول بقرح غيره أوجع بالإنسان مما كان ، فبالقرح متعلق بأوجع ، أو بنكاء.
(3). لم أجده مرفوعا ، وأخرجه الطبري من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصري أنه قيل له : ما بلغ ... فذكره.

«القلب يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون «1»» وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه ، وتمزيق الثياب. وعن النبي صلى الله

يقال : أخذ بأكظامه.

[سورة يوسف (12) : آية 85]

قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85)

تَفْتَؤُا أراد : لا تفتؤ ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات ، لأنه لو كان إثباتا لم يكن بدّ من اللام والنون. ونحوه : فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً «4»

(1). متفق عليه من حديث أنس.
(2). قال المخرج : عزاه الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب. ولم يرد هذا في ولد بعض بناته وإنما ورد في ولده إبراهيم كما أخرجه الترمذي وابن أبى شيبة وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر. وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن ابن عوف نحوه. والذي ورد في بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة وفيه «ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول اللّه؟ قال هذه رحمة جعلها اللّه في قلوب عباده» قلت والأول إنما هو بلفظ «قال عبد الرحمن بن عوف :
أتبكي ، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال : لا ، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين : صوت عند مصيبة ، وخمش وجوه ، ورنة شيطان ، وشق جيوب. وصوت نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان».
(3). قوله «فهو مملوء من الغيظ» أى الغضب الكامن. أفاده الصحاح. قوله «و لا يظهر ما يسوؤهم» أى لما صنعوا بيوسف وأخيه. (ع) [.....]
(4) سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت يمين اللّه أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
لامرئ القيس. يقول : سموت إلى محبوبتى سلمى بعد نوم أهلها ، ولم يسمع لي أحد صوتا ، ولم تشعر بى هي إلا وأنا عندها ، كسمو حباب الماء فوقه بسهولة. وحباب الماء - بالضم : اسم لثعبان الماء. وحباب الماء - بالفتح - :
فقاقعه التي تعلوه. وقوله : «حالا على حال» واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه ، أى : حالا منطبقا على حال ومساويا له ، كقولك «سواء بسواء» وهاهنا حذف ، أى : فخوفتنى بالقوم ، فقلت : يمين اللّه أبرح ، أى : لا أبرح قاعدا.
وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس ، ولأنه لولا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أو بهما. ويمين : نصب بمحذوف ، أى أحلف يمين اللّه ، فهو كالمصدر النائب عن فعله.
وبقية القصة تقدمت.

ومعنى تَفْتَؤُا لا تزال. وعن مجاهد : لا تفتر من حبه ، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين.

يقال : ما فتئ يفعل. قال أوس :

فَما فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي وَيَلْحَقُ مِنهَا لَاحِقٌ وَتَقَطعُ «1»

حَرَضاً مشفياً على الهلاك مرضاً ، وأحرضه المرض ، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأنه مصدر. والصفة : حَرِض ، بكسر الراء. ونحوهما : دنف ودنف ، وجاءت القراءة بهما جميعاً. وقرأ الحسن : حرضاً ، بضمتين ، ونحوه في الصفات : رجل جنب وغرب.

[سورة يوسف (12) : آية 86]

قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86)

البث : أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه إلى الناس أى ينشره. ومنه : باثه أمره ، وأبثه إياه. ومعنى نَّما أَشْكُوا إنى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملتجئاً إليه ، فخلوني وشكايتي. وهذا معنى توليه عنهم ، أى فتولى عنهم إلى اللّه والشكاية إليه. وقيل : دخل على يعقوب جارٌ له فقال: يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك! فقال : هشمنى وأفنانى ما ابتلاني اللّه به من همّ يوسف ، فأوحى اللّه إليه :

يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي ، فغفر له ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله. وروى أنه أوحى إلى يعقوب : إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ، ثم المساكين ، فاصنع طعاما وادع عليه المساكين. وقيل : اشترى جارية مع ولدها ، فباع ولدها فبكت حتى عميت أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب. وروى أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف؟ فقال ، لا والله هو حيّ فاطلبه. وقرأ الحسن : وحزنى ، بفتحتين. وحزنى ، بضمتين : قتادة.

[سورة يوسف (12) : آية 87]

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ(87)

(1). لأوس بن حجر ، وكنى بالخيل عن أصحابها. ويقال : ثاب وثوب. إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد. وتدعى : تفتعل من الدعاء أى يدعو بعضهم بعضا. ويحتمل أن تثوب بمعنى ترجع ، أى تذهب وترجع.
ومعنى «تدعي» تلاحق وينتسب بعضها إلى بعض مجازاً ، فيجوز أن الخيل حقيقة. أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية ، والادعاء بمعنى التنادى تخييل ، وهذان الوجهان أنسب بقوله «و يلحق» أى يسبق منها سابق. وتقطع :
أى تتقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعا قطعا ، فهي تجتمع وتفترق : صور الحرب من أولها إلى آخرها في هذا البيت ، أى : فما زالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب.

فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما. وقرئ بالجيم ، كما قرئ بهما في الحجرات ، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ومن الجس ، وهو الطلب. ومنه قالوا لمشاعر الإنسان : الحواس ، والجواس مِنْ رَوْحِ اللَّهِ من فرجه وتنفيسه. وقرأ الحسن وقتادة : من روح الله ، بالضم : أى من رحمته التي يحيا بها العباد.

[سورة يوسف (12) : آية 88]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)

الضُّرُّ الهزال من الشدّة والجوع مُزْجاةٍ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها ، من أزجيته إذا دفعته وطردته ، والريح تزجى السحاب ، قيل : كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمنا. وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء. وقيل : سويق المقل والأقط.

وقيل : دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ الذي هو حقنا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة ، لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء. وقيل كانت تحل لغير نبينا. وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال : ألم تسمع وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا أراد أنها كانت حلالا لهم.

والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا إليه أن يتصدّق عليهم ، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه. وقوله إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ شاهد لذلك لذكر الله وجزائه ، والصدقة : العطية التي تبتغى بها المثوبة من الله : ومنه قول الحسن - لمن سمعه يقول : اللهمّ تصدق عليّ : - إن الله تعالى لا يتصدق ، إنما يتصدق الذي يبتغى الثواب ، قل : اللهم أعطنى ، أو تفضل عليّ ، أو ارحمني.

[سورة يوسف (12) : آية 89]

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89)

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقاً ، »

فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، فقال : هل علمتم قبح ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ لا تعلمون قبحه ،

(1). قال محمود : «أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا ، فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح ... الخ» قال أحمد : ومن تلطفه بهم قوله إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم ، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذرا كهذا ، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يرد على أن قال : فعلتها إذاً وأنا من الضالين.

فلذلك أقدمتم عليه ، يعنى : هل علمتم قبحه فتبتم إلى اللّه منه ، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجرّ إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين ، لا معاتبة وتثريباً ، إيثاراً لحق اللّه على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، «1» ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها «2» وللّه حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل. لم يرد نفى العلم عنهم ، لأنهم كانوا علماء ، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل «3» ، سماهم جاهلين. وقيل : معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة. روى أنهم لما قالوا : مسنا وأهلنا الضر ، وتضرعوا إليه : ارفضت عيناه ، ثم قال هذا القول. وقيل : أدوا إليه كتاب يعقوب : من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه ، إلى عزيز مصر. أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء : أما جدّى ، فشدّت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه اللّه وجعلت النار عليه برداً وسلاماً ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه اللّه. وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادى إلىّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب ، فذهبت عيناي من بكائي عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمّه وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا : إنه سرق ، وأنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فإن رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره ، فقال لهم ذلك. وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب : اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فإن قلت : ما فعلهم بأخيه؟

قلت : تعريضهم إياه للغم والثكل «4» بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

(1). قوله «و ينفث المصدور ... الخ» المصدور : الذي يشتكى صدره. والمحنق : المغيظ. والموتور : الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «ما أوطأها وأسجحها» أى ما أسهلها وما أرفقها ، أفاده الصحاح. وفيه : فلان ذو حصاة ، أى ذو عقل ولب ، فحصا عقولهم : إضافة بيانية. (ع)
(3). قوله «و لا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المعنى لأن قوله «لم يفعلوا ... الخ» بمعنى فعلوا مالا يقتضيه العلم. (ع)
(4). والثكل : فقدان المرأة ولدها ، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن. (ع)

[سورة يوسف (12) : الآيات 90 إلى 93]

قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

قرئ أَإِنَّكَ على الاستفهام. وأنك ، على الإيجاب. وفي قراءة أبىّ : أإنك أو أنت يوسف ، على معنى أإنك يوسف أو أنت يوسف ، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه ، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع ، فهو يكرر الاستثبات. فإن قلت : كيف عرفوه؟ قلت : رأوا في روائه «1» وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو ، مع علمهم بأنّ ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم ، لا عن بعض أعزاء مصر. وقيل : تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم. وقيل : ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها ، تشبه الشامة البيضاء. فإن قلت : قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم. قلت : لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه مَنْ يَتَّقِ من يخف اللّه وعقابه وَيَصْبِرْ عن المعاصي وعلى الطاعات فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجرهم ، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا أى فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم ، لم نتق ولم نصبر ، لا جرم أنّ اللّه أعزّك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ لا تأنيب عليكم ولا عتب. وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه : إزالة الثرب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع «2» ، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده ، فضرب مثلا للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه. فإن قلت : بم تعلق اليوم؟ «3» قلت : بالتثريب ، أو بالمقدر في عَلَيْكُمُ من معنى الاستقرار.

(1). قوله «قلت رأوا في روائه» بالضم ، أى منظره. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و القرع» في الصحاح «القرع» بالتحريك : بثر أبيض ، يخرج بالنصال. والتقريع : معالجة الفصيل من القرع ، وينزع ذلك منه. (ع)
(3). قال : «فان قلت بم تعلق اليوم في قوله لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا المعنى إنما يتوجه على الإعراب الأول وهو الأوجه. ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ وقوله سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب ، ولو كان متعلقا بيغفر للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ باخبار النبي الصديق. ويحتمل أن يقال : إنما أراد مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركا بينهما ، والله أعلم.

أو بيغفر. والمعنى : لا أثر بكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم ابتدأ فقال يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال : غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً. ومنه قول المشمت «يهديكم الله ويصلح بالكم» والْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح ، فقال لقريش : ما ترونني فاعلا بكم؟ قالوا : نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت. فقال : أقول ما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم «1». وروى أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : إذا أتيت الرسول فاتل عليه لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك ولمن علمك «2». ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه : إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ، ونحن نستحيى منك لما فرط منا فيك ، فقال يوسف : إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم ، فإنهم ينظرون إلىّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتى ، وأنى من حفدة إبراهيم اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي يَأْتِ بَصِيراً يصر بصيراً ، كقولك : جاء البناء محكما ، بمعنى صار. ويشهد له فَارْتَدَّ بَصِيراً أو يأت إلىّ وهو بصير. وينصره قوله وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أى يأتنى أبى ، ويأتنى آله جميعاً وقيل : يهوذا هو الحامل ، قال : أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه ، فأفرّحه كما أحزنته. وقيل : حمله وهو حاف حاسر «3» من مصر إلى كنعان ، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

[سورة يوسف (12) : الآيات 94 إلى 96]

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96)

(1). أخرجه النسائي والبيهقي من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبى هريرة بمعناه وأتم منه. وأخرجه الثعلبي من رواية سمعان عن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه. وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم وقال فيه «قدرت فاسمح» وكذا أخرجه الواقدي في المغازي من حديث برة بنت تجراة. ورواه أبو عبيد في الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين.
(2). لم أجده
(3). قوله «و هو حاف حاسر» أى لا مغفر له ولا درع ، أفاده الصحاح. (ع)

فَصَلَتِ الْعِيرُ خرجت من عريش مصر. يقال : فصل من البلد فصولا ، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. وقرأ ابن عباس : فلما انفصل العير قالَ لولد ولده ومن حوله من قومه : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد : النسبة إلى الفند ، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم. يقال : شيخ مفند ، ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأى فتفند في كبرها. والمعنى : لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ لفي ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه قد مات أَلْقاهُ طرح البشير القميص على وجه يعقوب.

أو ألقاه يعقوب فَارْتَدَّ بَصِيراً فرجع بصيراً. يقال : ردّه فارتد ، وارتده إذا ارتجعه أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ يعنى قوله إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أو قوله وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وقوله إِنِّي أَعْلَمُ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ، ولك أن توقعه عليه وتربد قوله نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

ورى : أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال : هو ملك مصر : فقال : ما أصنع بالملك؟ على أن دين تركته؟ قال : على دين الإسلام. قال : الآن تمت النعمة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 97 إلى 98]

قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ قيل : أخر الاستغفار إلى وقت السحر. وقيل : إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل : ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل : أراد الدوام على الاستغفار لهم. فقد روى أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. وقيل : قام إلى الصلاة في وقت السحر ، فلما فرغ رفع يديه وقال : اللهمّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه ، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم ، فأوحى إليه : إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين.

وروى أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة : ما يغنى عنا عفو كما إن لم يعف عنا ربنا ، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبداً ، فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو ، وقام يوسف خلفه يؤمّن ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة ، وقد اختلف في استنبائهم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 99 إلى 100]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(100)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه. وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم ، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، أهذا فرعون مصر؟ قال لا ، هذا ولدك ، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وقيل إن يوسف قال له لما التقيا : يا أبت ، بكيت عليّ حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال : بلى ، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك ، وقيل : إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبى إسحاق : كانت أمّه تحيى ، وقيل : هما أبوه وخالته. ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين ، لأنّ الرابة تدعى أمّاً ، لقيامها مقام الأمّ ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب. ومنه قوله وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ فإن قلت : ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت : كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب «1» أو بيت ثم ، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه ، ثم قال لهم ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا إليه ، أكرم أبويه فرفعهما عَلى السرير وَخَرُّوا لَهُ يعنى الإخوة الأحد عشر والأبوين سُجَّداً ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال ، فأمر أن يرفع إليه أبواه ، فدخلا عليه القبة. فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه ، وقال بعد ذلك : ادخلوا مصر. فإن قلت : بم تعلقت المشيئة؟ قلت : بالدخول مكيفاً بالأمن ، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم ، فكأنه قيل لهم : اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازى : ارجع سالما غانما إن شاء الله. فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقا ، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة ، مكيفا بهما. والتقدير : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين ، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه ، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذى الحال. ومن بدع التفاسير أن قوله إِنْ شاءَ اللَّهُ من باب التقديم والتأخير ،

(1). قوله «في مضرب» عبارة النسفي : مضرب خيمة. (ع) [.....]

وأن موضعها ما بعد قوله سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي في كلام يعقوب ، وما أدرى ما أقول فيه وفي نظائره. فإن قلت : كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت : كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام ، والمصافحة وتقبيل اليد.

ونحوها مما جرت عليه عادة الناس ، من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير. وقيل : ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه ، وخرورهم سجداً يأباه. وقيل : معناه وخرّوا لأجل يوسف سجداً للّه شكراً. وهذا أيضا فيه نبوة. يقال : أحسن إليه وبه ، وكذلك أساء إليه وبه. قال : أَسِيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لَا مَلُومَةً «1»

مِنَ الْبَدْوِ من البادية ، لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع نَزَغَ أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري. يقال ، نزغه ونسغه ، إذا نخسه لَطِيفٌ لِما يَشاءُ لطيف التدبير لأجله ، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب. وروى أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه ، فأدخله خزائن الورق والذهب ، وخزائن الحلىّ ، وخزائن الثياب ، وخزائن السلاح وغير ذلك ، فلما أدخله خزانة القراطيس قال : يا بنىّ ، ما أعقك : عندك هذه القراطيس وما كتبت إلىّ على ثمان مراحل؟

قال : أمرنى جبريل. قال أو ما تسأله؟ قال : أنت أبسط إليه منى فسله. قال جبريل عليه السلام : اللّه تعالى أمرنى بذلك لقولك وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ قال : فهلا خفتنى؟ وروى أن يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات. وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه ودفنه ثمة ، ثم عاد إلى مصر ، وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له ، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد ، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت. وقيل : ما تمناه نبىّ قبله ولا بعده ، فتوفاه اللّه طيبا طاهراً ، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال ، فرأوا من الرأى أن عملوا له صندوقا من مر مر وجعلوه فيه ، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً «2» ، وولد له : إفراثيم وميشا ، وولد لإفراثيم نون ، ولنون يوشع فتى موسى ، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه. إلى أن بعث اللّه موسى صلى اللّه عليه وسلم.

(1). مر شرح هذا الشاهد صفحة 279 من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً» في الصحاح : الناس في هذا الأمر شرع ، أى سواء ، يحرك ويسكن. (ع)

[سورة يوسف (12) : آية 101]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

«من» في مِنَ الْمُلْكِ ومِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ للتبعيض ، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا ، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل أَنْتَ وَلِيِّي أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين ، ويوصل الملك الفاني بالملك الباقي تَوَفَّنِي مُسْلِماً طلب للوفاة على حال الإسلام ، ولأن يختم له بالخير والحسنى ، كما قال يعقوب لولده وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من آبائي أو على العموم. وعن عمر ابن عبد العزيز : أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت ، فقال له : صنع اللّه على يديك خيراً كثيراً : أحييت سننا وأمت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين ، فقال : أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ اللّه عينه وجمع له أمره قال : توفني مسلماً وألحقنى بالصالحين. فإن قلت : علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله رَبِّ كقولك أخا زيد حسن الوجه. أو على النداء.

[سورة يوسف (12) : آية 102]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)

ذلِكَ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومحله الابتداء. وقوله مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر إنّ. ويجوز أن يكون اسماً موصولا بمعنى الذي ، ومِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ صلته ونُوحِيهِ الخبر. والمعنى : أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحى ، لأنك لم تحضر بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر ، كقوله وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ ، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه، لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه ، ولا لقى فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته ، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحى ، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم : قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية : ونحوه : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ بيوسف ويبغون له الغوائل.

[سورة يوسف (12) : الآيات 103 إلى 104]

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (104)

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ يريد العموم ، كقوله وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنه. أراد أهل مكة، أى وما هم بمؤمنين وَلَوْ حَرَصْتَ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم وَما تَسْئَلُهُمْ على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ عظة من اللّه لِلْعالَمِينَ عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

[سورة يوسف (12) : آية 105]

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105)

مِنْ آيَةٍ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده يَمُرُّونَ عَلَيْها ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ «و الأرض» بالرفع على الابتداء ، ويمرون عليها : خبره. وقرأ السدّى «و الأرض» بالنصب على : ويطؤن الأرض يمرّون عليها.

وفي مصحف عبد اللّه : والأرض يمشون عليها ، برفع الأرض ، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

[سورة يوسف (12) : آية 106]

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ في إقراره باللّه وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض ، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن ، وعن الحسن : هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هم الذين يشبهون اللّه بخلقه.

[سورة يوسف (12) : آية 107]

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107)

غاشِيَةٌ نقمة تغشاهم. وقيل : ما يغمرهم من العذاب ويجللهم. وقيل : الصواعق.

[سورة يوسف (12) : آية 108]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

هذِهِ سَبِيلِي هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي. والسبيل والطريق : يذكران ويؤنثان ، ثم فسر سبيله بقوله أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أى أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. وأَنَا تأكيد للمستتر في أَدْعُوا. وَمَنِ اتَّبَعَنِي عطف عليه. يريد : أدعو إليها أنا ، ويدعو إليها من اتبعنى. ويجوز أن يكون أَنَا مبتدأ ، وعَلى بَصِيرَةٍ خبرا مقدّما ، ومَنِ اتَّبَعَنِي عطفاً على أَنَا إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان ، لا على هوى. ويجوز أن يكون عَلى بَصِيرَةٍ حالا من أَدْعُوا عاملة الرفع في أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحانَ اللَّهِ وأنزهه من الشركاء «1».

[سورة يوسف (12) : آية 109]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109)

إِلَّا رِجالًا لا ملائكة ، لأنهم كانوا يقولون لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يريد ليست فيهم امرأة. وقيل : في سجاح المتنبئة

وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا «2»

وقرئ : نوحى إليهم ، بالنون «3». مِنْ أَهْلِ الْقُرى لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة وَلَدارُ الْآخِرَةِ ولدار الساعة ، أو الحال الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا للذين خافوا اللّه فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ : أفلا تعقلون ، بالتاء والياء.

[سورة يوسف (12) : آية 110]

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(110)

(1). قوله «و أنزهه من الشركاء» لعله «عن». (ع)
(2) أضحت نبيتنا أنثى نساء بها ولم تزل أنبياء اللّه ذكرانا
فلعنة اللّه والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا.
أعنى مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداؤه ماء مزن حيثما كانا
لقيس بن عاصم. ويروى : نطيف بها ، بدل نساء بها. وطاف به يطوف : دار حوله. وطاف به يطيف : أتى عليه ونزل به. وهذا مبنى للمجهول منه ، عطف على أضحت. ويروى بدل الشطر الأول ، فما سمعت بأنثى قط أرسلها ، فالفاعل ضمير اللّه وإن لم يتقدم له مرجع لظهوره. ويروى بدل الثاني : وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا.
وسجاح : علم امرأة من سجح إذا سمح وعفا ، وهي بنت المنذر ، كانت شريفة في قومها بنى حنيفة ، فادعت النبوة ، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها ، ثم حاربه أبو بكر رضى اللّه عنه فقتل على يدي وحشى قاتل حمزة ، فأسلمت بعده وحسن إسلامها. ويروى «باللؤم» بدل الافك. ولا سقيت : جملة دعائية. والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر اليوم : كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة تزقو وتصيح : أدركونى أدركونى ، حتى يؤخذ بثأره ، وهي هنا مجاز عن جثته كلها. والمزن واحده مزنة وهو السحاب ، أى : اللهم اجعل قبره حارا عليه لا يناله غيث.
(3). قوله «و قرئ نُوحِي إِلَيْهِمْ بالنون مبنيا للمعلوم ، فتكون القراءة الأصلية بالياء ، مبنيا للمجهول. (ع)

حَتَّى متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، كأنه قيل : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا أى كذبتهم أنفسهم «1» حين حدّثتهم بأنهم ينصرون ، أو رجاؤهم لقولهم : رجاء صادق ، ورجاء كاذب. والمعنى أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من اللّه وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت ، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم اللّه من النصر «2» وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ فإن صح هذا عن ابن عباس ، فقد أراد بالظنّ : ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر ، فغير جائز على رجل من المسلمين ، فما بال رسل اللّه الذين هم أعرف الناس بربهم ، وأنه متعال عن خلف الميعاد ، منزه عن كل قبيح؟ وقيل : وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا ، أى : أخلفوا. أو : وظنّ المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أى : كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه. وقرئ : كذبوا ، بالتشديد على : وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم. وقرأ مجاهد : كذبوا ، بالتخفيف ، على البناء للفاعل ، على : وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة ، إمّا على تأويل ابن عباس ، وإمّا على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم : إنكم قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم. أو وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا.

ولو قرئ بهذا مشدّداً ، لكان معناه ، وظنّ الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم. قرئ : فننجي ، بالتخفيف والتشديد ، من أنجاه ونجاه. وفنجى ، على لفظ الماضي المبنى للمفعول.

وقرأ ابن محيصن : فنجا. والمراد ب مَنْ نَشاءُ المؤمنون ، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

[سورة يوسف (12) : آية 111]

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

(1). قال محمود : «معناه يئسوا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم ... الخ» قال أحمد : ولا يلزم أن يكون اللّه وعدهم بالنصر في الدنيا ، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لا عن إخبار ووحى ،

(2). عاد كلامه. قال : «و نقل عن ابن عباس أنه قال : فظنوا حين ضعفوا وغلبوا ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا تأويل حسن ينظم بين القراءتين ، لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم ، فيؤدى مؤدى قراءة التشديد.

الضمير في قَصَصِهِمْ للرسل ، وينصره قراءة من قرأ فِي قَصَصِهِمْ بكسر القاف. وقيل : هو راجع إلى يوسف وإخوته. فإن قلت : فإلام يرجع الضمير في ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى فيمن قرأ بالكسر؟ قلت : إلى القرآن ، أى : ما كان القرآن حديثاً يفترى وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى قبله من الكتب السماوية وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه في الدين ، لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل. وانتصاب ما نصب بعد لكِنْ للعطف على خبر كان. وقرئ «ذلك» بالرفع على : ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : علموا أرقاءكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن اللّه عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً «1».

سورة الرعد

([مدنية ، وقيل] مختلف فيها وهي ثلاث وأربعون آية [نزلت بعد سورة محمد])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرعد (13) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1)

تِلْكَ إشارة إلى آيات السورة. والمراد بالكتاب السورة ، أى : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ، ثم قال وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ من القرآن كله هو الْحَقُّ الذي لا مزيد عليه ، لا هذه السورة وحدها ، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية : هم كالحلقة «2» المفرعة ، لا يدرى أين طرفاها؟ تريد الكملة.

(1). تقدم إسناده في تفسير آل عمران وهو في آخر آل عمران ، وفي آخر الكتاب أيضا.
(2). قوله «الأنمارية هم كالحلقة» أى في أولادها. (ع)

[سورة الرعد (13) : الآيات 2 إلى 3]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

اللَّهُ مبتدأ. والَّذِي خبره ، بدليل قوله وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ويجوز أن يكون صفة. وقوله يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ خبر بعد خبر. وينصره ما تقدّمه من ذكر الآيات رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك. وقيل هي صفة لعمد. ويعضده قراءة أبىّ. ترونه. وقرئ : عمد ، بضمتين يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يدبر أمر ملكوته وربوبيته يُفَصِّلُ آياته في كتبه المنزلة لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه. وقرأ الحسن : ندبر ، بالنون جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت. وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يلبسه مكانه ، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. وقرئ : يغشى ، بالتشديد.

[سورة الرعد (13) : آية 4]

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ بقاع مختلفة ، مع كونها متجاورة متلاصقة : طيبة إلى سبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، «1» وصلبة إلى رخوة ، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها ، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد ، موقع لأفعاله على وجه دون وجه.

وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع ، مختلفة الأجناس والأنواع ، وهي تسقى بماء واحد ، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها.

(1). قوله «زهيدة» في الصحاح : واد زهيد قليل الأخذ للماء ، وأرض زهاد : أى لا تسيل إلا عن مطر كثير. (ع)

وفي بعض المصاحف : قطعاً متجاورات على : وجعل. وقرئ : وجنات ، بالنصب للعطف على زوجين. أو بالجرّ على كل الثمرات. وقرئ : وزرع ونخيل ، بالجرّ عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان : جمع صنو ، وهي النخلة لها رأسان ، وأصلهما واحد. وقرئ بالضم. والكسر : لغة أهل الحجاز ، والضم : لغة بنى تميم

[سورة الرعد (13) : آية 5]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5)

وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه ، لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهنّ ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب أَإِذا كُنَّا إلى آخر قولهم : يجوز أن يكون في محل الرفع بدلا من قولهم ، وأن يكون منصوباً بالقول. وإذا نصب بما دل عليه قوله أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وصف بالإصرار ، كقوله إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا. ونحوه: لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ «1» أو هو من جملة الوعيد

[سورة الرعد (13) : آية 6]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)

بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ بالنقمة قبل العافية ، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزءوا. والمثلة :

(1) ضلوا وإن سبيل الغى مقصدهم لهم عن الرشد أغلال وأقياد
سبيل الغى : مجاز عما هم عليه من الأحوال الخبيثة. والغل : ما تشد به اليد إلى العنق والقيد للرجلين «و هما مجاز عن الغفلة واتباع رأى النفس. يقول : سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق الهدى.

العقوبة ، بوزن السمرة. والمثلة لما بين «1» العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ويقال : أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال : القصاص. وقرئ الْمَثُلاتُ بضمتين لإتباع الفاء العين. والمثلات ، بفتح الميم وسكون الثاء ، كما يقال : السمرة «2». والمثلات بضم الميم وسكون الثاء ، تخفيف المثلات بضمتين. والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات «3» لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم «4» وفيه أوجه. أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال. وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام «لو لا عفو اللّه وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد» «5»

[سورة الرعد (13) : آية 7]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7)

لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عناداً ، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى ، من انقلاب العصاحية ، وإحياء الموتى ، فقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنما أنت رجل أرسالات منذراً ومخوّفاً لهم من سوء العاقبة ، وناصحاً كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر ، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت ، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها ، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطى كل نبى آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ، ويدعوهم إلى اللّه بوجه من الهداية ، وبآية خص بها ، ولم يجعل الأنبياء شرّعاً واحداً «6» في آيات مخصوصة. ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون ،

(1). قوله «المثلة لما بين» عبارة النسفي «و المثلة العقوبة لما بين ... الخ. (ع)
(2). قوله «كما يقال السمرة» لعله السمرة والسمرات. (ع)

(3). قوله «كركبة وركبات» في الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات وركبات. وفي هامشه عن مرتضى : أى بسكون الكاف وضمها وفتحها ، والراء مضمومة فيهن. (ع) [.....]
(4). قال محمود : «و محل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم ... الخ» قال أحمد : والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد ، فان ظلمه أعنى شركه لا يغفر وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة. والزمخشري يبني على عقيدته التي وضح فسادها ، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة ، فيقيد مطلقا ، ويحجر واسعا ، والله الموفق.
(5). أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب : لما نزلت وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره.
(6). قوله «و لم يجعل الأنبياء شرعا واحدا» أى سواء ، كذا في الصحاح. (ع)

فلا يهمنك ذلك ، إنما أنت منذر ، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم ، ولست بقادر عليه ، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء ، وهو الله تعالى. ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره : أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية ، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيراً ومصلحة ، لأجابهم إليه. وأما على الوجه الثاني ، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه ، هو القادر وحده على هدايتهم ، العالم بأى طريق يهديهم ، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

[سورة الرعد (13) : الآيات 8 إلى 9]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9)

اللَّهُ يَعْلَمُ يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً ، وأن يكون المعنى : هو الله ، تفسيراً لهاد على الوجه الأخير ، ثم ابتدئ فقيل يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى «و ما» في ما تَحْمِلُ ، وَما تَغِيضُ ، وَما تَزْدادُ. إما موصولة ، وإما مصدرية. فإن كانت موصولة ، فالمعنى : أنه يعلم ما تحمله من الولد على أن حال هو. من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج «1» ، وحسن وقبح ، وطول وقصر ، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة ، ويعلم ما تغيضه الأرحام : أى تنقصه. يقال : غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى وَغِيضَ الْماءُ وما تزداده : أى تأخذه زائداً ، تقول : أخذت منه حقي ، وازددت منه كذا. ومنه قوله تعالى وَازْدَادُوا تِسْعاً ويقال : زدته فزاد بنفسه وازداد ، ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد ، فإنها تشتمل على واحد ، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة. ويروى أن شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه. ومنه جسد الولد ، فإنه يكون تاما ومخدجا. ومنه مدة ولادته ، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة ، وإلى أربع عند الشافعي ، وإلى خمس عند مالك. وقيل : إنّ الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين ، ولذلك سمى هرما. ومنه الدم ، فإنه يقل ويكثر. وإن كانت مصدرية ، فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، ومن أوقاته وأحواله. ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها ، على أنّ الفعلين غير متعدّيين ، ويعضده قول الحسن : الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر.

(1). قوله و«خداج» في الصحاح : خدجت الناقة خداجا : ألقت ولدها قبل تمام الأيام ، فهي خادج ، وهو خديج، أو أخدجت : إذا جاءت به ناقص الخلق ، فهو مخدج ، وهو مخدج اه. (ع)

وعنه. الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام ، والازدياد ما ولد لتمام بِمِقْدارٍ بقدر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ. الْكَبِيرُ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه الْمُتَعالِ المستعلى على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

[سورة الرعد (13) : الآيات 10 إلى 11]

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (11)

سارِبٌ ذاهب في سربه - بالفتح - أى في طريقه ووجهه. يقال : سرب في الأرض سروبا. والمعنى : سواء عنده من استخفى : أى طلب الخفاء في مختبإ بالليل في ظلمته ، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يصْطَحِبَانِ «2»

(1). قال محمود : «إن قلت كان من حق الكلام أن يقال : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار ...
الخ» قال أحمد : فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى ، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر ، وتحتمل الآية وجها آخر : وهو أن يكون الموصول محذوفا وصلته باقية. والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار ، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع ، وخصوصا وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثا ، ومنه قوله تعالى وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ والأصل : ولا ما يفعل بكم ، وإلا كان حرف النفي دخيلا في غير موضعه ، لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهى موقع ، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة. ومنه :
فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء
أى ومن يمدحه وينصره ، واللّه أعلم.
(2) فبت أقد الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان
تعال فان عاهدتني لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
أأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخيين كانا أرضعا بلبان
للفرزدق ، يصف ذئبا أتاه في مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه ، حال كونهما مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى ، دلالة على تكرر إيقادها. وتكشر : أبدى أنيابه كالضاحك. وقائم سيفي : أى والحال أن مقبض سيفي بمكان عظيم من يدي ، دلالة على الحرص والجرأة. تعال : أى أقبل إلى نتعاهد. ويروى تعش أى كل العشاء ، فان عاهدتني بعد ذلك والتزمت أنك لا تخوننى: نكن مثل من يصطحبان يا ذئب. ومعنى «من» مثنى ، فعاد عليه الرابط كذلك. والنداء. اعتراض بين الصلة والموصول. وأ أنت : استفهام توبيخي. وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضا. وأخيين : مصغر أخوين. واللبان : لبن المرأة خاصة. شبه الذئب والغدر بتوأمين نشئا معا من صغرهما ترضعهما أم واحدة ، دلالة على كمال التلازم والتآلف. وتسمية الذئب امرأ ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه. وشبههما بالأخوين من نوع الإنسان ، كما دل على ذلك لفظ اللبان ، لأن التآلف فيه أكمل وأظهر منه في غيره.

كأنه قيل : سواء منكم اثنان : مستخف بالليل ، وسارب بالنهار. والضمير في لَهُ مردود على مِنْ كأنه قيل : لمن أسرّ ومن جهر ، ومن استخفى ومن سرب مُعَقِّباتٌ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته ، والأصل : معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف ، كقوله وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ بمعنى المعتذرون. ويجوز معقبات ، بكسر العين ولم يقرأ به. أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه ، كما يقال : قفاه ، لأنّ بعضهم يعقب بعضاً. أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ هما صفتان جميعاً ، «1» وليس مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بصلة للحفظ ، كأنه قيل : له معقبات من أمر اللّه. أو يحفظونه من أجل أمر اللّه ، أى : من أجل أنّ اللّه أمرهم بحفظه. والدليل عليه قراءة على رضى اللّه عنه وابن عباس وزيد بن على وجعفر بن محمد وعكرمة : يحفظونه بأمر اللّه. أو يحفظونه من بأس اللّه ونقمته إذا أذنب ، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب ، كقوله قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ وقيل : المعقبات الحرس والجلاوزة «2» حول السلطان ، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر اللّه أى من قضاياه ونوازله ، أو على التهكم به ، وقرئ له معاقيب جمع معقب أو معقبة. والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من العافية والنعمة حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي مِنْ والٍ ممن يلي أمرهم ويدفعه عنهم.

[سورة الرعد (13) : الآيات 12 إلى 13]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13)

(1). عاد كلامه. قال : ومعنى قوله لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ هما صفتان جميعا وليس من أمر اللّه بصلة الحفظ كأنه قيل له ... الخ» قال أحمد : وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم اللّه أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم. ولولا هذا السبب لكان في علم اللّه أن النقمة تحل عليه ، لأن اللّه عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وسع ربنا كل شيء علما.
(2). قوله «و الجلاوزة» في الصحاح «الجلواز» الشرطي ، والجمع الجلاوزة. (ع)

خَوْفاً وَطَمَعاً لا يصح أن يكونا مفعولا لهما «1» لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف ، أى : إرادة خوف وطمع. أو على معنى إخافة وإطماعاً. ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من

فَتى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ «2»

وقيل : يخاف المطر من له فيه ضرر ، كالمسافر ، ومن له في جرينه التمر والزبيب ، ومن له بيت يكف «3»، ومن البلاد مالا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ، ويطمع فيه من له فيه نفع ، ويحيا به السَّحابَ اسم الجنس ، والواحدة سحابة. والثِّقالَ جمع ثقيلة ، لأنك تقول سحابة ثقيلة ، وسحاب ثقال ، كما تقول : امرأة كريمة ونساء كرام ، وهي الثقال بالماء وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له. أى يضجون بسبحان اللّه والحمد للّه. وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول «سبحان من يسبح الرعد بحمده» «4» وعن على رضى اللّه عنه : سبحان من سبحت له. وإذا اشتدّ الرعد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك» «5» وعن ابن عباس أنّ اليهود سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد ما هو؟

(1). قال محمود : «خوفا وطمعا لا يصح أن يكون مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل ... الخ» قال أحمد : أو مفعولا لهما ، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى ، لأنه إذا أراهم فقد رأوا ، والأصل : وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً ، أى : ترقبونه وتتراءونه ، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع ، واللّه أعلم.
(2). يقول : هو فتى شجاع جواد ، يخشى شره ، ويرجى خيره ، فهو كالسحاب الأسود. والجون : الأسود : ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جنى بالضم ليكون جمعا ، أى السود المظلمات ، لأن السحاب جمع في المعنى. يرتجى الحياء : أى المطر ، منها. ونخشى صواعقها ، وهي قطع النار التي تنزل منها.
(3). قوله «و من له بيت يكف» وكف البيت يكف : قطر يقطر ، كذا في الصحاح. (ع)
(4). أخرجه الطبري من رواية إسرائيل عن ليث عن رجل عن أبى هريرة رفعه «أنه كان إذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده» ورواه البخاري في الأدب المفرد ، موقوفا على كعب بن مالك.
(5). أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد وأبو يعلى والحاكم من رواية الحجاج بن أرطاة عن أبى مضر عن سالم ابن عبد اللّه عن أبيه قال الترمذي : غريب.

فقال : «ملك من الملائكة موكل بالسحاب ، معه مخاريق «1» من نار يسوق بها السحاب» «2» وعن الحسن: خلق من خلق اللّه ليس بملك. ومن بدع المتصوّفة. الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله.

ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده ، وما دلّ على قدرته الباهرة ووجدانيته ثم قال وَهُمْ يعنى الذين كفروا وكذّبوا رسول اللّه وأنكروا آياته يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ويردّون الواحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم «الملائكة بنات اللّه» فهذا جدالهم بالباطل ، كقولهم وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وقيل : الواو للحال. أى : فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم. وذلك أنّ أربد أخا لَبيد ابن ربيعة العامري قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - حين وفد عليه معه عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى اللّه عامراً بغدّة كغدّة البعير «3» وموت في بيت سلولية ، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته - أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ «4» الْمِحالِ المماحلة ، وهي شدّة المماكرة والمكايدة. ومنه : تمحل لكذا ، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه. ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان. ومنه الحديث : «و لا تجعله علينا ماحلا «5» مصدّقا» وقال الأعشى :

(1). قوله «معه مخاريق من نار» في الصحاح المخراق : منديل يلف ليضرب به. (ع) [.....]
(2). أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «أقبلت يهود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم - فقالوا : أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد. فذكره - وزاد : قالوا : فما هذا الصوت قال : زجره للسحاب قالوا : صدقت» وفي الطبراني والأوسط من رواية أبى عمران الكوفي عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصارى «سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد. فقال : هو ملك بيده مخراق إذا رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت ، .
(3). قوله «بغدة كغدة البعير» في الصحاح : غدة البعير : طاعونه. (ع)
(4). أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه «أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة - فذكر الحديث مطولا» وأخرجه النسائي والطبري والعقيلي وأبو يعلى من رواية على بن أبى سارة عن ثابت عن أنس قال «بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلا إلى رجل من خزاعة العرب فقال : ادعه قال : يا رسول اللّه هو أخى من ذلك. قال : اذهب فادعه.
فأتاه. فقال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يدعوك. قال : وما اللّه؟ أمن ذهب هو أو من فضة ، أم من نحاس - الحديث. وفيه : فأنزل اللّه تعالى وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ ... الآية قال العقيلي : لا مانع على حديثه إلا ممن هو دونه.
وقد رواه البزار والبيهقي في الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت نحوه.

(5). قلت : الذي في الحديث «القرآن شافع مشفع وما حل مصدق» أخرجه ابن حبان من رواية أبى سفيان عن جابر والحاكم من حديث معقل بن يسار ، والطبراني من حديث ابن مسعود عن أنس. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن.

فَرْعُ نَبْعٍ يَهَشُّ فِى غُصُنِ الْمَجْ دِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ «1»

والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث. لا يحتسبون. وقرأ الأعرج بفتح الميم ، على أنه مفعل ، من حال يحول محالا إذا احتال. ومنه : أحول من ذئب ، أى أشدّ حيلة. ويجوز أن يكون المعنى : شديد الفقار «2» ، ويكون مثلا في القوة والقدرة كما جاء : فساعد اللّه أشدّ ، وموساه أحدّ ، لأن الحيوان إذا اشتدّ محاله ، كان منعوتاً بشدّة القوّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم : فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه.

[سورة الرعد (13) : آية 14]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14)

دَعْوَةُ الْحَقِّ فيه وجهان ، أحدهما : أن تضاف الدعوة إلى الحق «3» الذي هو نقيض الباطل ، كما تضاف الكلمة إليه في قولك : كلمة الحق ، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به ، وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى أن اللّه سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطى الداعي سؤاله إن كان مصلحة له ، فكانت دعوة ملابسة للحق ، لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء ، لما في دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدى دعاؤه. والثاني : أن تضاف إلى الحق الذي هو اللّه عز وعلا ، على معنى : دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب.

(1). فرع كل شيء أعلاه. والنبع : شجر تتخذ منه القسي. والهش من كل شيء : ما فيه رخاوة وليونة. وهش إليه ، من باب تعب وضرب : ضحك وانبسط إليه ، أى هو كفرع النبع في العلو وللصلابة في الحروب. وشبه المجد بشجرة طيبة على طريق المكنية ، فاضافة الغصن إليه تخييل لذلك. ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحية ، وإضافتها للمجد قرينة على ذلك. وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان ، غزير الندى كثير العطاء شديد المحال ، أى المماحلة والمكايدة ، وهو كالتفسير التشبيه الأول ، وغزير الندى كالتفسير الثاني ، وهو من بديع الكلام.
(2). قوله «و يجوز أن يكون المعنى شديد الفقار» في الصحاح : والمحالة أيضا : الفقارة ، وفيه «الفقارة» واحدة فقار الظهر. (ع)
(3). قال محمود : «فيه وجهان : أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق ... الخ» قال أحمد : دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال. فحجر واسعاً من لطف اللّه واستجابته أدعية عباده ، وحتم رعاية المصالح ، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباسها بالمصلحة ، وقد انكشف الغطاء وتبين أن اللّه تعالى لا تعلل أفعاله ولا تقف استجابته على الشرط المذكور ، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة ، واللّه الموفق.

وعن الحسن : الحق هو اللّه ، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت : ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله «1»؟ قلت. أما على قصة أربد فظاهر ، لأن إصابته بالصاعقة محال من اللّه ومكر به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : اللهمّ اخسفهما بما شئت ، فأجيب فيهما «2» ، فكانت الدعوة دعوة حق. وأما على الأوّل فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول اللّه بحلول محاله بهم ، وإجابة دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن دعا عليهم فيهم وَالَّذِينَ يَدْعُونَ والآلهة الذين يدعوهم الكفار مِنْ دون اللّه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ من طلباتهم إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، أى كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم. وقيل : شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه ، فبسطهما ناشراً أصابعه ، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه.

وقرئ : تدعون ، بالتاء. كباسط كفيه ، بالتنوين إِلَّا فِي ضَلالٍ إلا في ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا اللّه لم يجبهم ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

[سورة الرعد (13) : آية 15]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ أى ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله ، شاءوا أو أبوا. لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وتنقاد له ظِلالُهُمْ أيضاً ، حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص ، والفيء والزوال. وقرئ : بالغدوّ والإيصال ، من آصلوا : إذا دخلوا في الأصيل.

[سورة الرعد (13) : آية 16]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)

(1). قوله «اتصال هذين الوصفين بما قبله» عبارة النسفي : واتصال شَدِيدُ الْمِحالِ ولَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ بما قبله. (ع)
(2). ذكره الواحدي في الأسباب عن ابن عباس في القصة المذكورة. ولم أره فيها في الطريقين المتقدمين من رواية الكلبي وغيره.

قُلِ اللَّهُ حكاية لاعترافهم وتأكيد لم عليهم ، لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض ، لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا اللّه. كقوله قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك ، فإذا قال : هذا قولي قال : هذا قولك ، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقا منه ، ثم يقول له : فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقيناً ، أى : إن كعوا عن الجواب «1» فلقنهم ، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء ، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضررا ، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب ، فما أبين ضلالتكم! أَمْ جَعَلُوا بل اجعلوا. ومعنى الهمزة الإنكار «2» وخَلَقُوا صفة لشركاء ، يعنى أنهم لم يتخذوا للّه شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق اللّه فَتَشابَهَ عليهم خلق اللّه وخلقهم ، حتى يقولوا : قدر هؤلاء على الخلق كما قدر اللّه عليه ، فاستحقوا العبادة ، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ، إذ لا فرق بين خالق وخالق ، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا خالق غير اللّه ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة وَهُوَ الْواحِدُ المتوحد بالربوبية الْقَهَّارُ لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور.

[سورة الرعد (13) : آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

(1). قوله «أى إن كعوا عن الجواب» أى امتنعوا جبناً أو احتبسوا. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «أم مقدرة ببل والهمزة ومعناها هاهنا الإنكار ... الخ» قال أحمد : وفي قوله تعالى خَلَقُوا كَخَلْقِهِ في سياق الإنكار تهكم بهم ، لأن غير اللّه لا يخلق خلقا البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة للّه - تقدس عن التشبيه - ولا بطريق الانحطاط والقصور ، فقد كان يكفى في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقا ، ولكن جاء في قوله تعالى كَخَلْقِهِ تهكم يزيد الإنكار تأكيداً. والزمخشري لا يطيق التنبيه على هذه النكتة مع كونه أفطن من أن تستتر عنه ، لأن معتقده أن غير اللّه يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه ، ولكن لا يخلقون كخلق اللّه ، لأن اللّه تعالى يخلق الجواهر والأعراض ، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير. وفي قوله عز من قائل اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إلقام لأفواه المشركين الأولين ، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالقدرية ، فان اللّه تعالى بت هذه البتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضا ، فعلا لعبيده أو غيره ، فاللّه خالقه ، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أثيم أفاك ، يسمع آيات اللّه تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية وقرن شقاشقه ، واللّه الموفق.

هذا مثل ضربه اللّه للحق وأهله والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به «1» في صوغ الحلىّ منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً ، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب ، والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزيد السيل الذي يرمى به ، وبزبد الفلز الذي

قلت : بمقدارها الذي عرف اللّه أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ. ألا ترى إلى قوله وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ لأنه ضرب المطر مثلا للحق ، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة ، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف «2». فإن قلت : فما فائدة قوله ابْتِغاءَ حلية أو متاع؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله بِقَدَرِها لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ لأنّ المعنى : وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب ، وهو الحلية والمتاع. وقوله وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ عبارة جامعة لأنواع الفلز ، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك ، نحوَ ما جاء في ذكر الآجر فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ و«من» لابتداء الغاية. أى : ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبداً رابياً منفخاً مرتفعاً على وجه السيل ، أى يرمى به. وجفأت القدر بزبدها ، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤبة ابن العجاج : جفالا. وعن أبى حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة ، لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ : يوقدون ، بالياء : أى يوقد الناس.

(1). قوله «و بالفلز الذي ينتفعون به» في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاى : ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اه فليحرر ، ولعله ما يبقيه الكير ... الخ. (ع)
(2). قوله «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم : إذا جرف كل شيء وذهب به. (ع)

[سورة الرعد (13) : آية 18]

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18)

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا اللام متعلقة بيضرب ، أى كذلك يضرب اللّه الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا ، وللكافرين الذين لم يستجيبوا ، أى : هما مثلا الفريقين. والْحُسْنى صفة لمصدر استجابوا ، أى : استجابوا الاستجابة الحسنى. وقوله لَوْ أَنَّ لَهُمْ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين. وقيل : قد تم الكلام عند قوله كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ وما بعده كلام مستأنف. والحسنى : مبتدأ ، خبره لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا والمعنى : لهم المثوبة الحسنى ، وهي الجنة وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا مبتدأ خبره. «لو» مع ما في حيزه وسُوءُ الْحِسابِ المناقشة فيه. وعن النخعي : أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء

[سورة الرعد (13) : آية 19]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19)

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله أَفَمَنْ يَعْلَمُ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فاستجاب ، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب : كبعد ما بين الزبد والماَء والخبث والإبريز إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أى الذين عملوا على قضيات عقولهم ، فنظروا واستبصروا.

[سورة الرعد (13) : الآيات 20 إلى 24]

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (23) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ مبتدأ. وأُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ خبره كقوله : والذين ينقضون عهد اللّه أولئك لهم اللعنة. ويجوز أن يكون صفة لأولى الألباب ، والأوّل أوجه.

وعهد اللّه : ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى . وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه : من الإيمان باللّه وغيره من المواثيق بينهم وبين

وَتَجَلُّدِى لِلشّامِتِينَ أُرِيهِمُ «1»

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مردّ فيه للفائت ، كقوله :

مَا إنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلَعْ تُ وَلَا يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا «2»

(1) وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
لأبى ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي ، يرثى بنيه. روى أن معاوية مرض ، فعاده الحسن بن على رضى اللّه عنهما فقال : كحلونى وألبسونى عمامتي ، وأظهر القوة وأنشد له البيت الثاني ، فأجابه الحسن بغتة بالأول. وشبه المنية بالسبع على طريق المكنية. وإنشاب الأظفار : تخييل. ومنى له : قدر له. والمنية : الموت لأنه مقدر.
والانشاب : الغرز والتعليق. ألفيت : أى وجدت كل تميمة لا تنفع ، وهي ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد. وتجلدي : أى تصبرى وتصلبي. مبتدأ. وأريهم : خبره ، أى أظهر لهم به أنى لا أتضعضع وأتخشع وأضعف لأجل ريب الدهر ، أى حدثانه الطارئ من حيث لا أشعر. [.....]
(2) ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت برداً
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجداً
أعددن للحدثان سا بقة وعداء علندى
نهداً وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ما إن هلعت ولا جز عت ولا يرد بكاى زندا
لعمرو بن معد يكرب. يقول : ليس الجمال بفاخر الثياب. وفاعلم : اعتراض. والخطاب لغير معين ، أى ليس كذلك وإن ألبستها والبرد ، ثوب سابغ يرتدى به إن الجمال خصال حميدة أكسبت أصحابها الشرف. والحدثان : مكروه الدهر المنقلب. والسابغة الدرع ، وكانت له درع من ذهب. والعداء : الفرس الكثير العدو. والعلندى - بالفتح - : الغليظ الشديد السريع. وشيء علند : صلب - واعلندى البعير : اشتد. والنهد : الضخم الطويل. والشطب - بالضم - :
طرائق السيف. والأبدان : الدروع القصيرة ، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد ، قطع غيرهما بالأولى :
مدح نفسه بالشجاعة ، ثم بالصبر فقال : كثير من إخوانى أنزلتهم اللحود بيدي ، ومع ذلك ما جزعت لا قليلا ولا كثيراً فان زائدة. والهلع : شدة الجزع. وفي الحديث «من شر ما أوتى العبد : شح هالع ، وجبن خالع» أى يهلع فيه وكأنه يخلع فؤاده. وتزند فلان. ضاق بالجواب وغضب. والمزند : مثل في الشيء. ويقال للحقير : زندان في مرقعة ، فالزند : الشيء الحقير. ويروى : زيدا : بالياء ، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضى اللّه عنه ، كان صديقا له في الجاهلية. ويروى : وهل يرد بكائي؟ أى : لم أجزع ، لعلمي أنه لا ينفع.

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسناً عند اللّه ، وإلا لم يستحق به ثواباً، وكان فعل كلا فعل مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الحلال ، لأنّ الحرام لا يكون رزقا «1» ولا يسند إلى اللّه «2» سِرًّا وَعَلانِيَةً يتناول النوافل ، لأنها في السر أفضل - والفرائض ، لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ويدفعونها. عن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم. وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا. وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا. وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره عُقْبَى الدَّارِ عاقبة الدنيا وهي الجنة ، لأنها التي أراد اللّه أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها «3». وجَنَّاتُ عَدْنٍ بدل من عقبى الدار. وقرئ : فنعم ، بفتح النون.

(1). قوله «لأن الحرام لا يكون رزقا» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيكون رزقا كالحلال. (ع)
(2). قال محمود : «المراد مما رزقناهم من الحلال ، لأن الحرام لا يكون رزقا ولا يسند إلى اللّه تعالى» قال أحمد :
الحق أن لا رازق إلا اللّه إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ كما أنه لا خالق إلا اللّه هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا اللّه فأى مقال بعد ذلك يبقى للقدرى الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأى حديث بعد اللّه وآياته يؤمنون.

(3). قال محمود : «المراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ... الخ» قال أحمد : قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة مثل وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ، مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ. وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ والمراد في جميع ذلك : عقبى الخير والسعادة ، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هي التي أرادها الله فهي الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقييد يفهمها كقوله وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع ومشيئة ما لم يكن مصادمة لما أنطق الله به ألسنة حملة الشريعة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق ما يعين أنه الأصل باعتبار الارادة ، ففعله الأصل باعتبار الأمر ، ونحن نقول : إن المؤدى إلى حمد العاقبة مأمور به ، والمؤدى إلى سوئها منهى عنه ، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل ، والله الموفق.

والأصل : نعم. فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها ، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرى : يَدْخُلُونَها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبى عبلة صَلَحَ بضم اللام ، والفتح أفصح ، أعلم أنّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوى كل واحد منهم ، فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم سَلامٌ عَلَيْكُمْ في موضع الحال ، لأنّ المعنى : قائلين سلام عليكم ، أو مسلمين. فإن قلت : بم تعلق قوله بِما صَبَرْتُمْ؟ قلت : بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم. والمعنى : لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة ، كقوله :

بِمَا قَدْ أرَى فِيهَا أوَانِسَ بُدَّنَا «1»

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» «2» ويجوز أن يتعلق بسلام ، أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم.

[سورة الرعد (13) : آية 25]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)

مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول سُوءُ الدَّارِ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا ، لأنه في مقابلة عقبى الدار ، . ويجوز أن يراد بالدار جهنم ، وبسوئها عذابها.

[سورة الرعد (13) : آية 26]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (26)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره ، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم وَفَرِحُوا بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ،

(1) أرى الوحش ترعي اليوم في ساحة الحما بما قد أرى فيها أوانس بدنا
يقول : أرى الوحش ترعى في ساحة الحما في هذا الزمان ، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة ، فقد أرى : حكاية حال ماضية ، وقد لتقريبها. والأوانس : جمع آنسة. والبدن : جمع بادنة ، أى سمينة البدن.
(2). أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية سهيل بن أبى صالح عن محمد بن إبراهيم التيمي قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره» وزاد «كان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك».

ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ، وخفى عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

[سورة الرعد (13) : الآيات 27 إلى 29]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ(29)

فإن قلت : كيف طابق قولهم لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قوله قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ؟ قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم

[سورة الرعد (13) : آية 30]

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30)

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، يعنى : أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، ثم فسر كيف أرسله فقال فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ أى أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك وَهُمْ يَكْفُرُونَ وحال هؤلاء أنهم يكافرون بِالرَّحْمنِ بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء ، وما بهم من نعمة فمنه ، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم قُلْ هُوَ رَبِّي الواحد المتعالي عن الشركاء عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في نصرتي عليكم وَإِلَيْهِ مَتابِ فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

[سورة الرعد (13) : آية 31]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً جوابه محذوف ، كما تقول لغلامك : لو أنى قمت إليك ، وتترك الجواب والمعنى : ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ عن مقارّها ، وزعزعت عن مضاجعها أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فتسمع وتجيب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف ، كما قال لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ هذا يعضد ما فسرت به قوله لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من القرآن. وقيل : معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم ، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ الآية. وقيل : إن أبا جهل بن هشام قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع ، كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم ، فلست بأهون على اللّه من داود. وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام. أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا : منهم قصى بن كلاب «1» فنزلت. ومعنى تقطيع الأرض على هذا : قطعها بالسير ومجاوزتها. وعن الفراء : هو متعلق بما قبله. والمعنى : وهم يكافرون بالرحمن وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ وما بينهما اعتراض ، وليس ببعيد من السداد.

وقيل قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ شققت فجعلت أنهارا وعيونا بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً على معنيين ، أحدهما : بل للّه القدرة على كل شيء ، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ، إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه. والثاني : بل للّه أن يلجئهم إلى الإيمان ، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار. ويعضده قوله أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ يعنى مشيئة الإلجاء والقسر «2» لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ومعنى أَفَلَمْ يَيْأَسِ أفلم يعلم. قيل : هي لغة قوم من النخع. وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ، لأنّ اليائس عن

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِى أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ «3»

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرءوا : أفلم يتبين ، وهو تفسير أَفَلَمْ يَيْأَسِ وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق.

(1). لم أجده بهذا السياق ، وقد روى ابن ربيعة عن أبى أسامة عن مجالد عن الشعبي قال قالت قريش النبي صلى الله عليه وسلم «إن كنت نبياً كما تزعم فباعد بين جبلي مكة - أحسبها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى تزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبي ، أو احملنا إلى الشام ، أو إلى اليمن ، أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلت. فأنزل الله تعالى وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً - الآية وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبى سعيد قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح» وروى أبو يعلى من حديث الزبير بن العوام يقول «لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا آل قريش ، فجاءته قريش. فحذرهم وأنذرهم فقالوا : تزعم أنك نبى وأن سليمان سخر له الريح والجبال ، وأن موسى سخر له البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى. فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتنفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل أو ادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أو ادع الله أن يصبر هذه الصخرة التي بجنبك ذهبا فنحت منها ويغنينا قال : فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحى. فلما سرى عنه قال : والذي نفسي بيده ، لقد أعطانى ما سألتم ولو شئت كان ولكن أخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم. فنزلت».

(2). قوله «أن لو يشاء الله يعنى مشيئة الإلجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة. (ع)

(3). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 261 فراجعه إن شئت اه مصححه.